الحديث السادس والعشرون

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« **كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته ، فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة** » رواه البخارى ومسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجاه من رواية همام بن منبه عن أبى هريرة .

أما البخارى فخرجه مختصرا فى كتاب الصلح ، وقريبا من هذا فى كتاب الجهاد، وأمّا مسلم ففى كتاب الزكاة واللّفظ له .

وبألفاظ متقاربة خرجه البزّار من رواية أبى صالح عن أبى هريرة ، ومسلم من رواية أبى الأسود الديْلمى عن أبى ذرّ ، والإمام أحمد وأبوداود من حديث بريدة ، وابن حبان من حديث ابن عباس .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

المرء مهما كانت درجة تقواه وصلاحه لا يدخل الجنة بمحض عمله واجتهاده وعباداته أبدا ، ولو صرف الدهر كله لعبادة ربه ، ولكن برحمته تعالى ولطفه وتوفيقه؛ لأن عمر الإنسان وإن طال فلن يستطيع صاحبه أن يشكر اللّه على نعمه التى لا حصر

سلامى : جمعها سلاميات ، وهى عظام الكف والأصابع والأرجل ، والمقصود هنا : جميع عظام الجسد.
تطلع فيه الشمس : أى يكرر الصدقات بتجدد الأيام .
تعدل بين اثنين : أى تصلح بين اثنين وتحبّب الصلح لهما .
الكلمة الطيبة : كالذكر ، والنصيحة ، والتعليم ، والموعظة .
وتميط الأذى : أى تزيله حقيقة أو حكما بألا تلقيه فيه .
الأذى : كل ما يؤذى المارّة.

لها ولا عد. قال تعالى:﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤ ، النحل:١٨].

وعن أنس رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « يؤتى بالنّعم يوم القيامة وبالحسنات والسيئات فيقول اللّه لنعمة من نعمه : خذى حقك من حسناته فما تتركَ له حسنة إلا ذهبت بها »(١) .

علم السلوك :

اعتقاد البعض أن جوهر الطاعات فى التحلّل من الدنيا وتبعاتها ، والانفراد عن الناس فى قبّة أو خلوة ، والانتصاب للذكر والدعاء والصلاة ، مفهوم دخيل قبل كل شىء ؛ لأننا نعهده لدى الرّهبان من النصارى الذين انزوَوْا عن الأمّة ، وفصلوا أنفسهم عنها ، ولم ينزلوا إلى الساحة لمعاينة ما تكابده الإنسانية وما تلاقيه من إجحاف وتعسّف وجور .

ولكن الإسلام اجتماعى ، أعنى : أن المسلم مدنى أكثر من غيره ؛ لأنه ليس وحشيّا انطوائيا .

فمن مبادئ الإسلام الحنيف ألا رهبانية فيه، وإنما ابتدعها بعض الضعفاء الذين لايقوون على مواجهة الظلم ومناصرة المظلوم ، أيّام محن المسلمين ، وطغيان الفتن التى اجتاحتهم من مقتل الإمام عثمان رضى اللّه عنه إلى مواقع الجمل ، وصفين . . . وغيرها ، قال تعالى :﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : ٢٧] .

كان الأجدر بهؤلاء الانطوائيّين الذين يدربون أنفسهم على الصبر والتحمل بالجوع والظمأ ، والوقوف الطويل . . . وغير ذلك من ترّهاتهم أن يحتكوا بأبناء جلدتهم فيعينوا الضعيف ، ويوقفوا المستضعف عند حدوده ، ويصلحوا بين المتحاربين أو المتنافرين ، ويصابروا على ما يلحقهم منهما . . . إلخ .

ذى هى العبادة وذا هو الامتحان الدّقيق الذى يحصحص الحق ويزهق الباطل .

الفقهية :

من المعلوم أن كل الروايات الواردة فى هذا الحديث تخدم بعضها بعضا .

ففى رواية لمسلم وأبى داود وأحمد عن أبى ذر رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال: « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن

(١) رواه ابن أبى الدنيا بإسناد فيه ضعف .

المنكر صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وبضعة أهله صدقة ، ويجزئ من ذلك كله ركعتان من الضحى » .

إذًا فصلاة الضحى يعدل ثوابها ثلاثمائة وستين صدقة ، ولقد ورد فى فضلها الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ؛ فعن بريدة أن رسول الله ﷺ قال : « فى الإنسان ستُّونَ وثلاثمائة مفصل ، عليه أن يتصدق على كل مفصل منها صدقة » قالوا : فمن الذى يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال : « النخامة فى المسجد يدفنها أو الشىء ينحيه عن الطريق ، فإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزئ عنه » (١) .

وعن الحديثين السابقين يقول الشوكانى : (والحديثان يدلان على عظم فضل الضحى وكبر موقعها وتأكد مشروعيتها، وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة، وما كان كذلك فهو حقيق بالمواظبة والمداومة) .

وعن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ قال : « قال الله ــ عز وجلّ ــ : ابن آدم لا تعجزن عن أربع ركعات فى أوّل النهار أكفك آخره » (٢) .

وجاء فيها عن عبدالله بن عمرو قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فغنموا وأسرعوا الرجعة ، فتحدث الناس بقرب مغزاهم وكثرة غنيمتهم وسرعة رجعتهم ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على أقرب منهم مغزى ، وأكثر غنيمة ، وأوشك رجعة ؟ من توضأ ثم غدا إلى المسجد لسبحة الضحى فهو أقرب مغزى ، وأكثر غنيمة، وأوشك رجعة» (٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيّام فى كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام (٤) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ فى سفر صلّى سبْحة الضحى ثمانى ركعات ، فلما انصرف قال : « إنى صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة : سألته ألا يبتلى أمتى بالسنين ففعل ، وسألته ألا يظهر عليهم عدّوهم ففعل ، وسألته ألا يلبسهم شيعا فأبى علىّ » (٥) .

حكمها : سنة كل يوم ، وعليه الجمهور سلفا وخلفا والأئمة الأربعة ، وقال بعضهم: لا تندب يوميّا مستندا فى ذلك على قول أبى سعيد رضى الله عنه: كان ﷺ يصلى الضحى حتى نقول : لا يدعها ، ويدعها حتى نقول : لا يصليها (٦).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .
(٢) رواه الحاكم، والطبرانى ورجاله ثقات .
(٣) رواه أحمد والطبرانى ، وروى أبو يعلى نحوه .
(٤) رواه البخارى ومسلم .
(٥) رواه أحمد، والنسائى، والحاكم، وابن خزيمة وصححاه.
(٦) رواه الترمذى وحسّنه .

وقتها : يبتدئ وقتها بابتداء وقت حل النافلة ؛ أى بارتفاع الشمس قيد رمح ، وينتهى بالزوال ، ولكن أفضل وقت لها هوحين الهاجرة ، فعن زيد بن أرقم رضى اللّه عنه قال : خرج النبىّ ﷺ على أهل قباء ، وهم يصلّون الضّحى فقال : « صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال من الضحى » (١) ، أى : حين تحترق أخفاف ولد الناقة ــ الفصيل ــ يكون وقت صلاة الضحى .

عدد ركعاتها : أقلها اثنتان ؛ لحديث أبى ذر السابق الذكر : « ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » .

وأكثرها مختلف فيه فما ثبت من فعل النبىّ ﷺ فهو ثمانى ركعات ، وأكثر ما ثبت من قوله فهو اثنتا عشرة ركعة .

قال مجاهد : صلى ﷺ يوما الضحى ركعتين ، ثم يوما أربعا ، ثم يومًا ستّا ، ثم يوما ثمانيا .

الاجتماعية :

« تعدل بين اثنين » .

العدل قوام الحياة ، وأساس الكون ، فهو اسم من أسمائه تعالى ، وتنجلى مظاهر العدل فى شتىّ نواحى الحياة ، سواء أكانت سياسية ، أم اجتماعية ، أم تربوية ؛ لأن الإنسان مأمور بالعدل بين زوجاته إن كان زوجا ، وبين أبنائه إن كان أبا ، وبين محكوميه إن كان أميرا ، وبين الدنيا والآخرة إن كان مكلفا ، تحقيقا لقول اللّه تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

العدل بين الزوجات : ويكفى أن الإسلام جعل من موانع التعدد ؛ الخوف ــ مجرّد الخوف ــ من الميل والجور ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء : ٣] ، كما شدّد فى تهويل عذاب الذى لا يعدل بين زوجاته حيث صوّره الرسول الكريم ﷺ فى أشنع صورة يأتى عليها ذلك الرّجل يوم القيامة (٢) .

العدل بين الأبناء : كما أن العدل بين الأبناء فريضة شرعية يؤثم الآباء على تركها، وذلك بتفضيل الذكور على الإناث مثلا ، أو بإيثار البعض بالغذاء والكساء ، والتعليم دون الآخرين ؛ لأن ذلك يورث الذرية الحقد فيما بينهم ، ويزكّى جذوة الخلاف فيما بينهم، وذى دعوة الرسول الكريم للآباء : « اعدلوا بين أبنائكم » (٣) .

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى .

(٢) ومن شاء التوسع ، فليعد إلى كتب الفقه فإن فيها ما يروى الغليل .

(٣) رواه البخارى .

السياسية :

أولا : تقوم الحكومة الإسلامية بجميع أجهزتها ودواوينها على العدل ، وأين العدل إلا فى المنهج الربانى ؟ ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [التين : ٨] وإذا كان الحاكم الإسلامى يستمدّ شرعية حكمه وفرضية اتباعه من قدسية الشرع ، فإنه معرّض فى أى وقت يخالف فيه أحكام الشرع للتقويم وحتى العزل ، ولا تضمن له سنواته الدستورية بالبقاء على مقاليد الحكم كما تؤمن له النظم السياسية المعاصرة .

والجور كل الجور فى اتباع الهوى قال تعالى : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** ﴾ [الشورى : ١٥] ، وجاء الأمر الإلهى لداود عليه السلام : ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ص : ٢٦] .

وهذا نهى النبىّ ﷺ للولاة عن غش الرعية : « ما من عبْد يسترعيه اللّه رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلاحرَّم اللّه عليه الجنة » (١) .

وفى المقابل يحدد رسول اللّه ﷺ علاقة المحكوم بالحاكم ، ويوضحها ، وينزع ستار الهيبة المصطنعة والرّهبة المفروضة بالعسس والحرس ، والبهرجة التى يعمد إليها الملوك والسّلاطين والحكام لبسط نفوذهم ، ويكشف النبىّ ﷺ عن حقيقة تلك العلاقة الربّانية : «إن لهم (٢) عليكم حقّا ، ولكم عليهم حقا مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين » (٣) .

وعلى القاضى فى محكمته أن يكون عادلا فى الفصل بين المتخاصمين ، لا تميله الرشاوى ، ولا تغريه الفصاحة يقول ﷺ : « المقسطون عند اللّه يوم القيامة على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ــ عز وجل ــ وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حُكمهم، وأهليهم، وما ولوا » (٤) .

ويجب أن تبتعد الأحكام القضائية عن العواطف البشرية والعلاقات الإنسانية ، ويبقى ذلك مضمونا إن كان المحكم هو شريعة اللّه ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا**

---

(١) رواه الديلمى .
(٢) أى الأئمة .
(٣) رواه ابن حنبل .
(٤) رواه مسلم ، والنسائى .

فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء : ١٣٥] .

فلا يحمل القضاة الهوى ، والعصبية وبغض الناس لهم مثلا على ترك العدل والإنصاف ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] . وإليك أيها الأخ القارئ أسوق هذا المثال الحى الذى رواه الإمام مالك فى الموطأ عن سليمان بن يسار ؛ أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر ، فيخرصُ بينه وبين يهود خيبر ، قال : فجعلوا له حليا من حلى نسائهم ، فقالوا له : هذا لك ، وخفف عنّا وتجاوز فى القسم، فقال عبد الله بن رواحة : يا معشر اليهود ، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلىّ ، وما ذلك بحاملى أن أحيف عليكم ، فأما ما عرضتم من رشوة فإنها سحت ، وإنا لا نأكلها ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

هكذا يترجم عبد الله بن رواحة الآية السابقة ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة : ٨] بسلوكه إلى عالم الواقع .

وذى حادثة أخرى تبين كيف ينصف الحاكم العادل رعيته حتى من نفسه التى بين جنبيه ، فعن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله ﷺ ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكا قد عصبت رأسه ، فقال: «خذ بيَدى يا فضل » فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال : « ناد فى الناس » فاجتمعوا إليه فقال :

« أما بعد ، أيها الناس ، فإننى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأنّه قد دنا منى خفوق(١) من بين أظهركم فمَن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فلْيستقد منه (٢) ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء من قبلى ؛ فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منّى حقا إن كان له ، أو أحْللنى فلقيت ربّى وأنا طيب النفس » .

كما أمر الله الموثقين ــ كتاب المواثيق والعهود والشهادات ــ بالعدل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

ولا يتوقف عدل المسلم إلا مع المسلم ، بل ومع العالمين أجمعين ، قال البلاذرى

(١) خفق النجم : غاب .

(٢) يستقد منه : يقتص منه .

فى (فتوح البلدان) : وحدثنى أبو حفص الدمشقى قال : حدثنى سعيد بن عبد العزيز قال:

(بلغنى أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ، ردّوا على أهل حمص مَا كانوا أخذوا منهم مَن الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنّا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعنّ جُنْد هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص ، إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فَإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدو ، فلما هزم اللّه الكفرة وأظهر المسلمين، فتحوا مدنهم ، وأدوا الخراج).

ثانيا : « كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة » .لقد جاء الأمر الإلهى بالتوفيق والصلح بين الفردَين المسلمين أو القبيلتين أو الطائفتين ، أو الدولتين المتقاتلتين لاجتهادات فردية أو لتأويلات متعددة ، قال تعالى : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات : ٩].

ولقد جمع جملة ما قيل فى هذه الآية أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى فقال : (قال العلماء : لا تخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما ، إما أن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعا أو لا .

فإن كان الأوّل، فالواجب فى ذلك يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ، ويثمر المكافّة والموادعة ، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا ، وأقامتا على البغى صير إلى مقاتلتهما .

وإمّا إن كان الثانى ــ وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى ــ فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكفّ وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغىّ عليها بالقسط والعدل .

فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقّة فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق ، فإن ركبتا متْن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به ، من اتباع الحق ، بعد وضوحه لهما،

فقد لحقنا بالفئتين الباغيتين) (١) .

الإعلامية :

لازلنا نؤكّد أن الأجهزة الإعلامية العالمية اليوم تعانى أزمة حادّة ، ليست أزمة مادية إعلامية، ولا أزمة كتاب صحفيّين أو مذيعين ، بل تعانى أزمة فقدان الكلمة الطيبة التى تقرب المتنافرين ، وتربط المتباعدين ، وتزيد عرى القرابة والصداقة وثوقا ومتانةً . إنّ الإسلام يقدّر خطورة الإعلام حقّ التّقدير ؛ لذا عدّ ممّا يثقل ميزان المؤمن تفوّهه مجرّد التفوّه بالكلمة الطيبة ، وأمرنا بالتثبت من صدق المصادر الخبرية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات :٦].

كما حَرّم الكذب والنميمة وشدّد فى وعيد الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع الإسلامى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ١٩] .

إن وقع الكلمة الشريرة أشدّ وأنكى من دوّى المدافع ، ويكفى أن الإعلام من مسببات الحرب الكونية الثانية التى أتت على الحرث والنسل ، وإننا لنعانى اليوم من إعلام خبيث نمّام يسعى إلى إثارة الأحقاد والضغائن لأتفه الأسباب وينفث سمّه بين الأمم والشعوب .

نعانى من وكالات أنباء حاقدة فاسقة همّها إثارة النّعرات وبعث الخلافات وإفشاء الجنس والميوعة لهدم أخلاق المجتمعات الإسلامية خاصة .

فإلى إعلام ذى مصداقية ، هادف بناء يخدم الإنسانية ، ويحق الحق ويبطل الباطل، ويخمد الفتن ، ويذيب الحدود الجليدية بين البلدان الإسلامية ، ويذهب الغمام الذى يخيّم على كثير من العلاقات الاجتماعية .

الفلكية :

الكون ــ هذا العالم الفسيح الرهيب ــ يسير بنظام دقيق رسمه له سبحانه وتعالى، ولعل علاقة ذكر سلاميات الإنسان مع حركة الشمس تحمل أسْرارا عظيمة وأبعادا كبيرة حيث إن الخلايا الحيوانية التى تمثّل وحدة بناء الكائن الحى تتكون من نواة تمثل المركز الأساسى مثلما تكون الشمس، المحور الذى تدور حوله المجموعة الشمسية ، وإذا كانت السلاميات ،أى :المفاصل وجميع عظام جسد الإنسان تقوم بأدوار مختلفة، وهى

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٦ / ٣١٧ .

فى حركة نشطة دائمة كذلك الشمس وبقية الكواكب هى الأخرى ليست فى استقرار وركود بل فى حركة وعلى مسارات محددة . ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

الطبية :

تكوين العظام وتركيبها الدقيق على هيئة قفص منيع يحمى القلب ، وعلى هيئة سلسلة فقرية تتماسك فيما بينها وتتنوع ، ثم تمتد الأطراف والسواعد ، والسيقان . . . كل ذلك آية من آيات الله العظمى فى الإنسان وما يربط الجهاز العظمى من عروق ، وغضاريف تتحرك بإرادة الله تعالى يعجز الطبُّ بمخترعاته وآلاته المستحدثة أن يعوّض الإنسان عضوا من أعضائه بكامل معنى التعويض .

إنها نعم كثيرة على الإنسان ،خلق ، وتصوير، وتركيب ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ ــ ٨] .

وقال عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨، ٩].

لهذا كله استحق الخالق الحمد ــ وهو له أهل ــ والثناء الجميل على هذه الأجهزة المعقدة دقيقة الصنع ، بحيث لو أمضى المرء كل حياته وأضعافها يحمد الله على نبض عرق واحد من عروقه ما حمده كما يجب أن يُحمد ، ومن جرب طاقم الأسنان الاصطناعية ، وجهاز تصفية الدم ، والأرجل البلاستيكية عرف فضل الله ، وحينها يفقه التحدّى الإلهى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَه ﴾ [الحج : ٧٣] .

العمرانية :

إزالة ما يؤذى المارّة من أشواك ، ونجاسات ، وقاذورات تصيب المارّة بروائحها المتعفّنة وأمراضها المتعدّدة ، وكذا تنظيف الأحياء والشوارع وترصيفها من الأهمية فى الحضارة الإسلامية بمكان .

حتى إن عمر بن الخطاب يعلن مسؤوليته أمام الله عن تعثر بغلة بالعراق إذا لم يصلح لها طريقها . وذى الأندلس وغيرها من حواضر العالم الإسلامى ، شاهدة على ما أقول بسبلها النظيفة وطرقها الجميلة .

فقه الدعوة

١ ــ على الداعية المخلص ــ ولا أحسبه إلا كذلك ــ أن يقف من جميع الحركات الإصلاحية المختلفة المتناحرة فيما بينها على وجهات النظر موقف الحكم العدل ، لا موقف المتفرّج أو المتحزّب المتعصّب .

ولو أنصف البعض وفقهوا أبعاد الرسالة الإسلامية ما وجدنا دعاة يتحيزون لفرق متعدّدة ويذبون عنها بدل الوقوف فى وجه التيارات الملحدة الكافرة للذود عن الجوهر المهدد ــ العقيدة الإسلامية .

٢ ــ ليعطى الداعية أمثلة حسّية مشرقة حيّة فى الواقع المعاش ، حتى يعيها البسطاء والأمّيون ، ويتحسّسون فضائلها عليهم وعلى المجتمع الذى هم فيه ،كأن ينظم حملات تطوعية لتنظيف الشوارع والأحياء السكنية ، أو لجمع التبرعات المادية وفتح صناديق خيرية لتزويج عزاب الفقراء ، ولرعاية الأيتام ، والتكفّل بالعجزة المحْتاجين والمعوزين ، أو حملة لمحو الأمية التى يعانى منها السّواد الأعظم من أمة اقرأ .

وأراهن أنه لو كان ذلك كذلك لما فقد الكثير من مصداقيتهم ، ومن القاعدة الشعبية التى يسندون عليها ظهورهم فى بعض المواقف .

وإنك لتجد هذا فى أساليب المبشرين والدعاة المسيحيّين الذين يتخذون من حملات التطعيم ضد الأمراض الخطيرة والمعدية ، ومن توزيع الأقمشة والأدوية والأغطية على المنكوبين فى الكوارث الطبيعية ، ومن المستشفيات المجانية ، والمدارس الشعبية وسائل لدعوتهم ، ومن تلك القنوات الفعالة يستمدون مصداقية عملهم .

إن الدعوة الإسلامية مجنىّ عليها اليوم ، وقد سئمت من وسيلتها التى تكاد تكون وحيدة ، وهى اللسان ، وتريد أن تفك من عقالها الذى فرض عليها وهو المسجد . أما خارج المسجد، وفى ميدان الأفعال والتضحيات والمواقف فلا دعوة ، ولا هم يحزنون.

وعندى مثال للمقارنة فحسب ، فلقد وصل الآباء البيض ــ كما يسمون أنفسهم ــ إلى أقصى جنوب الجزائر أيّام الاحتلال الفرنسى رغم الفوارق الطبيعية الهائلة بين مواطنهم الأصلية وبين ميدان العمل .

ولكننا الآن نتهرّب من الميدان الخصب للدعوة فى أدغال أفريقيا ونولّى وجوهنا قبل العواصم الأوربية لفتح عشرات مراكز الحركات الإصلاحية .

إن الشعوب الأفريقية المسلمة سواء التى افتتنت عن دينها أو التى تكبّلها قيود الأميّة ولا زالت ترزح تحت تهديدات الأعداء وإغراءات المبشرين أمانة فى أعناق الأمة

الإسلامية على الخصوص ، ووزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ومدارس تكوين الأئمة والوعاظ والمرشدين كالأزهر الشريف والجامعات الإسلامية العالمية ، التى تنتظر منها الدعوة الرصيد الأوفى ، والدّعم الأكبر .

تطبيق

١ ــ لقد افتتنت الأمة الإسلامية فى الثمانيات من القرن العشرين بحرب عشوائية أتت على الأخضر واليابس واستنزفت دماء إسلامية وطاقات ، وخلفت آلاف القتلى الذين ماتوا باسم الشهداء . . ! ومئات المشرّدين ، والثكلى ، والأرامل بين العراق ، وإيران وراء هذه الحرب القذرة خيوط شيطانية خطيرة ، تحركها عصابات محترفة فى استنزاف طاقات الأمة ، وستظل هى المستفيد الأول والأخير من تلك الحرب الدامية ، مهما كانت نتائجها على البلدين المسلمين .

ولكن الذى يبهت المسلم ، ويدع الحليم منا حيران هو تنكّب أهل الإسلام وإعراضهم عن قول الحق سبحانه : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا** ﴾ [الحجرات : ٩] ، ووقوفها العلنى غير المحتشم مع طائفة ضد أخرى تحرضها وتزكى نيران غيظها وحقدها، وتشد إزرها وتسندها حتى تحصد الثانية حصدا .

وهكذا انشطرت دول العالم الإسلامى ــ إلامن رحم ربنا ــ إلى قسمين : إلى مناصرين للعراق على إيران الفارسية ، والتى تهدد حصون العرب و . . و . . . وهلم جَرّا . . من الاتهامات الأخرى .

وإلى مؤيدين لإيران على العراق البعثى ، فاللهم وحد كلمة المسلمين ، وأصلح بالهم، وألف بين قلوبهم يا مؤلف القلوب ، آمين .

٢ ــ إن الناظر إلى الطرق والمجارى المائية فى بعض المدن العربية التى أضحت فى كثير منها مصادر للأوبئة الخطيرة والأمراض الفتاكة ، حتى أصبح بعضها يصدق عليه ما كتبه أحد الصحفيين : مدينة قذرة بامتياز ؛ ليرثى لحال أمة الطهارة والنظافة .

الحديث السابع والعشرون

عن النواس بن سمعان ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ عن النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم قال : « **البرّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس** » رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ قال : أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال : « **جئت تسأل عن البرّ ؟** » قلت : نعم ! قال : « **استفت قلبك البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردّد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك** » حديث حسن صحيح رويناه فى مسند الإمامين أحمد ابن حنبل والدارمى بإسناد حسن .

ترجمة الراويين .

١ ـ راوى الحديث الأول هو : النوّاس بن خالد الكلبى ، وهو من أهل الصفّة أقام خارج المدينة المنوّرة ، ولم يهاجر إليها ، بل كان يفد إليها للسؤال فى أمور دينه فحسب ، ولعله قصد عدم الهجرة إلى المدينة ، حتى يتأتى له سؤال النبى فى كل

البرّ : بكسر الباء كلمة جامعة لجميع أفعال الخير ، ويطلق البر باعتبارين : أحدهما : باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، والثانى : أن يُراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة.

حسن الخلق : يطلق على التخلق بالأخلاق المحمودة شرعًا . ويطلق على طلاقة الوجه .

الإثم : المعصية .

ما حاك : أى تردد .

وكرهت أن يطلع : أى يراه الناس ويعلموه .

الناس : أى أهل الدين والصلاح .

جئت : على تقدير همزة الاستفهام ، وهو استفهام تقريرى .

استفت قلبك : أى ارجع إلى قلبك الطاهر وضميرك الحىّ .

اطمأنت إليه النفس : أى سكونها وعدم انزعاجها .

اطمأن إليه القلب : سكونه أيضًا .

وتردد فى الصدر : أى لم ينشرح إليه الصدر .

أفتاك الناس : بأنه ليس إثما .

الناس أهل العلم والمعرفة الذين من شأنهم أن يُسألوا .

وأفتوك : أى مجتمعين .

مرة يفد فيها عليه ولا يتحرج من ذلك ، وها هو يقول كما جاء فى مسلم: (أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة ، ما يمنعنى من الهجرة إلا المسألة ، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شىء ، فسألته عن البرّ والإثم)، وصلت مروياته إلى سبعة عشر حديثًا .

٢ ــ والثانى هو : وابصة بن معبد ــ رضى الله تعالى عنه ــ ، من قبيلة بنى أسد ، وكان إسلامه سنة تسع من الهجرة مع عشرة من قومه ، قدموا على رسول الله ﷺ ، ثم عاد وابصة إلى بلاده ، وكان كريمًا معطاء ، وعاش تسعين سنة .

سبب ورود الحديث :

عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد ألا أدع شيئًا من البرّ والإثم إلا سألته عنه . فقال لى:« ادن يا وابصة » ، فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبته ، فقال: « يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسأل عنه وتسألنى » فقلت : يا رسول الله أخبرنى ، قال: «جئت تسألنى عن البر والإثم » قلت : نعم ، فجمع أصابعه الثلاث ، فجعل ينكت بها فى صدرى ويقول : «يا وابصة ، استفت نفسك ، البرّ ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى القلب ، وتردّد فى الصدّر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . كما وردت أحاديث أخرى بروايات مختلفة فى هذا الشأن ، تدل على أن موضوع الحلال والحرام ، أو البر والإثم ،كان يشغل بال الصحابة ــ رضوان الله عليهم جميعًا .

ومن هذه الروايات ما جاء على شرط مسلم من حديث أبى أمامة قال : قال رجل: يا رسول الله ، ما الإثم ؟ قال :« إذا حاك فى صدرك شىء فدعه » . وخرج الإمام أحمد من رواية عبد الله بن العلاء بن زيد قال : سمعت أبا ثعلبة الخشنى يقول: قلت : يا رسول الله ، أخبرنى ما يحلّ لى ومَا يحرم علىّ ، قال : « البرّ ما سكنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ، ولا يطمئن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون » . وعن عبد الرحمن بن معاوية ؛ أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما يحلّ لى ، وما يحرم علىّ ؟ وردّد عليه ثلاث مرات، كل ذلك يسكت النبى ﷺ ، ثم قال : « أين السائل ؟ » فقال له : أنا يا رسول الله ، فقال بإصبعه : «ما أنكر قلبك فدعه » (١) .

(١) خرجه أبو القاسم البغوى فى معجمه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

جاء وابصة بن معبد ، وهو يكنّ فى نفسه ــ دون أن يخطر أحدا ــ السؤال والبحث عن البرّ وحقيقته ، والإثم وماهيته ، وبادره الرسول ﷺ بقوله : « جئت تسأل عن البِّر » رغم أن علم ما فى الصدور ضرب من خرق حجب الغيب ، ورغم أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يحادث الرجل ، أو يستطلع عليه قبل ذلك ، ولا شقّ على قلبه ، إنها معجزة تعزز رصيده الخارق لستار الغيب الذى عزره الله به ونصره، وتشبه هذه الحادثة إلى حد قريب مجيء عمير الجمحى إلى رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر الكبرى ، وكان قد أسر ابنه وهب بن عمير الجمحى فيها .

واتفق أن جلس عمير هذا مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر ، فقال عمير : والله لولا دين علىّ ليس عندى قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الفقر بعدى ، كنت آتى محمدا فأقتله فإن ابنى أسير فى أيديهم ، فقال صفوان : دينك علىّ وعيالك مع عيالى. فأخذ عمير سيفه ، وشحذه ، وسمه ، وانطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير متوشحا سيفه ، فقال : هذا الكلب عدوّ الله ما جاء إلا بشرّ، ثم قال للنبىّ ﷺ : هذا عدو الله عمير قد جاء متوشّحا سيفه ، فقال: « أدخله علىّ » . فأخذ عمر بحمائل سيفه ، وأدخله ، فلما رآه عليه السلام قال : «أطلقه يا عمر ، ادن يا عمير » ، فدنا، وقال : انعموا صباحًا ، فقال عليه السلام : «قد أبدلنا الله تحية خيرًا من تحيتك ، وهى السلام » ، ثم قال : « ما جاء بك يا عمير؟» قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : « فما بال السيف ؟ » قال : قبّحها الله من سيوف ، وهل أغْنت عنا شيئًا ؟ قال عليه السلام : «أصدقنى ما الذى جئت له ؟ » قال : ما جئت إلا لذلك ، قال عليه السلام : « كلا بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر وقلتما كيت وكيت » ، فأسلم عمير، وقال : كنا نكذّبك بما تأتى به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان!! فقال عليه السلام: « فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا أسيره » فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه .

والمعجزة هى السبيل إلى معرفة النبى حيث عرفها الشيخ عبد الله الهروى فى كتابه (الصراط المستقيم) بقوله :

هى أمرخارق للعادة يأتى على وفقِ دعوى من ادّعوْا النبوّة ، سالم من المعارضة بالمثل.

فما كان من الأمور عجيبًا ولم يكن خارقًا للعادة فليس بمعجزة ، وكذلك ما كان خارقًا لكنّه لم يقترن بدعوى النبوّة كالخَوارق التى تظهر على أيدى الأولياء أتباع الأنبياء؛ فإنه ليس بمعجزة بل يسمّى كرامة، وكذلك ليس من المعجزة ما يستطاع معارضته بالمثل كالسحر فإنه يعارض بسحر مثله .

والمعجزة قسمان : قسم يقع بعد اقتراح من الناس على الذى ادّعى النبوة ، وقسم يقع من غير اقتراح .

مصطلح الحديث :

خرج الإمام أحمد من حديث ربيعة عن عبد الملك بن سعيدة بن سويد ، وأبى أسيد ــ رضى اللّه عنهما ــ أن رسول اللّه ﷺ قال : «إذا سمعتم الحديث عنّى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ،وتنفر عنه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منْه» ، وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا حدثتم عنى حديثا تعرفونه ولا تنكرونه فصدقوه ، فإنى أقول ما يعرف ، ولا ينكر، فإذا حدثتم عنى بحديث تنكرونه ولا تعرفونه فلا تصدقوا به ؛ فإنى لا أقول ما ينكر ولا يعرف » .

(. . . .وإنما يحمل مثل هذه الأحاديث على تقدير صحتها على معرفة أئمة أهل الحديث الجهابذة النقّاد الذين كثرت دراستهم لكلام النبى ﷺ ، ولكلام غيره لحال رواة الأحاديث ونقلة الأخبار ، ومعرفتهم بصدقهم ، وكذبهم ، وضبطهم ، وحفظهم، فإن هؤلاء لهم نقد خاص فى الحديث مختصون بمعرفته كما يختص الصيرفى البصير الحاذق فى معرفة الجوهر بإنقاد الجواهر ، وكل من هؤلاء لا يمكن أن يعبّر عن سبب معرفته ، ولا يقيم عليه دليلا لغيره ، وآية ذلك أنه يعرض الحديث الواحد على جماعة ممن يعلم هذا العلم فيتفقون على الجواب فيه من غير مواطأة ، وقد امتحن منهم غير هذا مرّة فى زمن أبى زرعة وأبى حاتم ، فوجد الأمر على ذلك ، فقال السائل : أشهد أن هذا العلم إلهام .

قال الأعمش : كان إبراهيم النخعى صيرفيًا فى الحديث ، كنت أسمع من الرجال فأعرض عليهم ما سمعته .

وقال عمرو بن قيس : ينبغى لصاحب الحديث أن يكون مثل الصيرفى (١) الذى

(١) الصيرفى : المحتال فى الأمور كالصيرفى وهو صرّاف الدّراهم .

ينقد الدرهم الزائف [١] والبهرج [٢] وكذا الحديث .

وقال الأوزاعى : كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا ، كما نعرض الدرهم الزائف على الصيارفة ، فما عرفوا أخذنا ، وما أنكروا تركنا ، وقيل لعبد الرحمن بن مهدى: إنك تقول للشىء : هذا يصح ، وهذا لم يثبت ، فعمّن تقول ذلك ؟ فقال : أرأيت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك ، فقال : هذا جيّد، وهذا بهرج ، أكنت تسأله عن ذلك أو تسلم الأمر إليه ؟ قال :لا . بل كنْت أسلم الأمر إليه ، فقال : فهذا كذلك لطول المجادلة والمناظرة والخبرية.

وقد روى نحو هذا المعنى عن الإمام أحمد أيضًا ، وأنه قيل له : يا أبا عبد اللّه تقول : هذا الحديث منكر ، فكيف علمت ولم تكتب الحديث كله ؟

قال : مثلنا كمثل ناقد العين [٣] لم تقع بيده العين كلها ، فإذا وقع بيده الدينار ، يعلم أنه جيّد وأنه ردىء .

وقال ابن مهدى : معرفة الحديث إلهام ، وقال : إنكارنا الحديث عند الجهال كهانة.

وقال أبو حاتم الرازى : مثل معرفة الحديث كمثل فصّ ثمنه مائة دينار وآخر مثله على لونه ثمنه عشرة دراهم ، قال : وكما لا يتهيأ للنّاقد أن يخبر بسبب نقده ، فكذلك نحن رزقنا علما لا يتهيأ لنا أن نخبر كيف علمنا بأن هذا حديث كذب ، وأن هذا حديث منكر، إلا بما نعرفه، قال : ويعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره ، فإن تخلف فى الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش ، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره ، فإن خالفه فى المائية والصلابة علم أنه زجاج ، ويعلم صحة الحديث بعدالة ناقليه وأن يكون كلاما يصح مثل أن يكون كلام النبوة ، ويعْرف سقمه وإنكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته واللّه أعلمَ.

وأوّل من اشتهر فى الكلام فى نقد الحديث : ابن سيرين ، ثم خلفه أيوب السختيانى، وأخذ ذلك عنه شعبة ، وأخذ عن شعبة يحيى القطان وابن مهدى ، وأخذ عنهما أحمد وعلى بن المدينى وابن معين ، وأخذ عنهم مثل البخارى وأبى داود ، وأبى زرعة ، وأبى حاتم ، وكان أبو زرعة فى زمانه يقول : من قال يفهم هذا وما أعزّه إلا رفعت هذا عن واحد واثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا .

---

(١) صارت الدراهم زيوفا : مردودة لغش فيها ، يقال : درهم زيف وزائف : ردىء .

(٢) البهرج : الباطل الردىء .

(٣) العين : الدينار والذهب ، وذات الشىء ، والربا ، والسبل .

ولما مات أبو زرعة قال أبو حاتم : ذهب الذى كان يحسن هذا المعنى ، يعنى أبا زرعة ما بقى بمصر ولا بالعراق واحد يحسن هذا .

وقيل له بعد موت أبى زرعة : يعرف اليوم واحد يعرف هذا ؟ قال : لا ، وجاء بعد هؤلاء جماعة منهم النسائى والعقيلى وابن عدىّ والدارقطنى ، وقلّ من جاء بعْدهم من هو بارع فى معرفة ذلك حتى قال أبو الفرج بن الجوزى فى أول كتابه (الموضوعات): قل من يفهم هذا بل عدم ، واللّه أعلم) (١) .

هذه الآثار وتلك الوقائع تؤكد أن علماء الحديث ورجاله قد حباهم اللّه بحاسّة قويّة وروح شفّافة ، وشعور مرهف به يميزون بين صحيح الأحاديث وسقيمها ، وفى الغالب لا تخيبهم حواسّهم .وإن كان يستحيل استغناؤهم عن الطرق العلمية فى تحقيقهم للأحاديث حيث يعتمد عليها علم الحديث بشقّيه : دراية ، ورواية .

وفوق علم الجرح والتعديل ، وعلم علل الحديث ، وغيرها من علوم الحديث المتشعبة كما قال الجازمى : (يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة كل نوع منها علم مستقل لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته)(٢) . فهناك طرق علمية أخرى يتبعها المحدثون فى الكشف عن الموضوع والمكذوب نشير إلى بعض منها :

١ ــ ما يسمّى بالنقد الموضوعى :

أ ــ أن يكون مناقضا لنص القرآن ، والسنة المتواترة، والإجماع القطعى بحيث يتم عرض الحديث على أصول الدين وقواعد الإسلام الكلية العامة ، فإن خالفها فلا ريب فى ضعفه وخلله .

ب ــ أن يكون الحديث مخالفا لصريح العقل حيث لا يقبل التأويل ، أو ينكره الحس والمشاهدة والعادة .

فمن المخالف للعقل ما رواه ابن الجوزى من طريق عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم عن أبيه عن جده مرفوعا : « إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا ، وصلت عند المقام ركعتين »(٣) .

كما ذكر بعض أهل هذا الفن أن من أمارات الوضع أن يكون فيه،

---

(١) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، لأبى الفرج البغدادى ص ٢٤١ ـ ٢٤٣، ط : دار المعارف .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى ، المطبعة المصرية بالقاهرة ١ / ٤ .

(٣) تدريب الراوى ص ١٨١ .

وأعطى ثواب نبىّ أو النبيِّين ونحوهما .

٢ ــ معرفة الأسلوب النبوى ، وذلك بكثرة الممارسة والتجربة وحفظ رصيد هائل من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة مع حفظ الكثير من الموضوعات فى الجانب المقابل ، للتمييز بين الأسلوب النبوى البليغ ، باعتبار الرسول الكريم ﷺ سيد البلاغة ، وأب الفصاحة والبيان من تلفيقات الوضّاعين المهملة المضطربة المتميزة بركاكة ألفاظها ، وبساطة معانيها بل وتفاهتها .

٣ ــ معرفة الأحداث السياسية والاجتماعية والفكرية ، وخاصة التى واكبت حركة تدوين السنة النّبوية الشريفة ؛ حيث نلاحظ الكثير من تلك الأحداث قد فرضت نفسها على بعض كتب السنة الواهية ؛ فزخرت بامتداح مدن الملوك ، والفواكه المحببة إليهم ، وأساليب الترفه ، التى يتعاطونها كالتى جاءت فى إطراء الشام والعراق ومصر ، وكذلك الآراء الفقهية والكلامية .. وكذا الفواكه المختلفة كالعنب ، والبطيخ ، والباذنجان .. وسنورد أمثلة لتلك المختلقات :

ــ قيل لمأمون بن أحمد الهروى : ألا ترى إلى الشافعى ومن يتبعه بخراسان فقال : حدثنا أحمد بن عبد اللّه ، حدثنا عبيد اللّه بن معدان الأزدى ، عن أنس مرفوعا : « يكون فى أمتى رجل يقال له : محمد بن إدريس ، ويكون أضرّ على أمتى من إبليس ، ويكون فى أمتى رجل يقال له : أبو حنيفة هو سراج أمتى ، هو سراج أمتى» .

ــ كما وضع غياث بن إبراهيم للخليفة المهدى حديث : « لا سبقَ إلا فى خفٍّ أو حافر ــ فزاد فيه ــ : أو جناح » وكان المهدى إذ ذاك يلعب بالحمام فتركها وأمر بذبحها وقال له : أشهد أن قفاك قفا كذّاب .

ــ وكحديث : « إن البطيخ ماؤه رحمة ، وحلاوته مثل حلاوة الجنة » .

ــ وكحديث : « عليكم بالعدس فإنه مبارك ، فإنه يرق له القلب ويكثر الدمعة» ، «عليكم بالقرع ، فإنه يزيد فى العقل ويكبر الدماغ » .

الأصولية :

اختلفت طوائف من فقهاء الشافعية والحنفية المتكلمين فى الإلهام : هل هو حجة أم لا؟

فذهبت طائفة إلى أن الكشف ليس بطريق إلى الأحكام ، وأخذه القاضى أبو يعلى من كلام أحمد فى ذمّ المتكلمين فى الوساوس والخطرات .

والإمام أحمد إنما ذم الوسواس والخطرات من الصوفية حيث كان كلامهم فى ذلك لا يستند إلى دليل شرعى ، بل إلى مجرّد رأى وذوق ، كما كان ينكر الكلام فى مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأى من غير دليل شرعى .

وأما الرجوع فى الأمور المشتبهة إلى حُوّاز القلوب ، فقد دلت عليه النصوص النبوية وفتاوى الصحابة ، وها هو الإمام أحمد ينصّ على ذلك أيضا :

قال المروزى فى كتاب (الورع) : قلت لأبى عبد اللّه : إن القطيعة أرفق بى من سائر الأسواق، وقد وقع فى قلبى من أمرها شىء ، فقال : أمرها أمر قذر متلوث ، قلت : فتكره العمل فيها ؟

قال : دع عنك هذا إن كان لا يقع فى قلبك شىء ، قلت : قد وقع فى قلبى منها، فقال : قال ابن مسعود : الإثم حواز القلب . قلت : إنما هذا المشاورة ، قال : أى شىء يقع فى قلبك ؟ قلت : قد اضطرب علىّ قلبى ، قال : الإثم هو حواز القلوب(١) .

القضائية :

القاضى المسلم مهما كانت درجة التزامه ، وورعه ، وعلمه فإنه لا يتحول من بشر إلى ملك ، بل كثيرًا ما تُرديه بشريته إلى الوقوع فى الخطأ ، وقد ينجم عن ذلك الخطأ تأويل محكم كتاب اللّه ، أو إبطال حكم اللّه ، ومن ثمّ ظلم المتقاضى .

قال معاذ بن جبل: أحذركم زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضّلال على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . فقيل لمعاذ : ما يدرينى أن الحكيم قد يقول كلمة الضلال ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال: اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التى يقال ما هذه ؟ ولا يثنيك ذلك عنه فإنه لعله أن يراجع، وتلق الحق إن تسمعه فإنه على الحق نور(٢) ،فإذا صدرت عنه ــ أى القاضى ــ أحكام تخالف نصا قرآنيا أو سنيا فهى ليست إلزامية .

الاجتماعية :

« . . وكرهت أن يطلع عليه الناس ».

---

(١) قال صاحب القاموس : وحواز القلوب فى حديث ابن مسعود ما يجوزها ويغلبها حتى تركب ما لا تحب، ويروى : حزاز ، جمع حازة : وهى الأمور التى تحز فى القلوب وتحرك وتؤثر ويتخالج فيها أن تكون معاصى لفقد الطمأنينة إليها . ا . هـ .

(٢) أخرجه أبو داود .

أ ــ المجاهرة بالمعاصى وأخطارها : النفس البشرية عموما بحكم طبيعتها الأصلية تألف الخير وتميل إليه وتحبّذه حتى وكأن البشرية تعارفت عليه فسماه اللّه معروفا .

كما تتقزز من الشر وتجده خبيثًا فى نتائجه، خبيثا فى مظاهره وتستهجنه الطبائع السليمة وتستنكره؛ ولذا سماه القرآن منكرا ،قال تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقال تعالى فى صفة الرسول ﷺ : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذا إذا لم تضعف تلك الروح الخيرية فى المجتمع والتى تعتبر السلطان الرادع لنوازع الشر، فغالبا ما تختلط الأمور ويتساوى الحسن والقبيح بفعل فلسفات عقيمة وأيديولوجيات حيوانية أرضية كالتى ظهر بها (دارون) وأمثاله .

هنالك تضطرب الموازين وتتلاشى القيم وتنطلق الشهوات والنزوات دون أدنى وجل أو حياء ، ويختلط الحابل بالنابل وساعتها على البشرية السلام .

ب ــ المصادقة « . . . أن يطلع عليه الناس . . . » .

المراد بالناس : أهل الدين والصلاح الذين لا زالت أنفسهم على فطرتها الأولى، أما الفساق فهم إخوان الشياطين همهم تزيين القبيح والتنفير من الحسن، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [النور : ٢١] ،هذا شأن إبليس وهو هو شأن أتباعه وعباده ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة : ٦٧] .

وعليه فيجب على الوالد أن يتخير لولده الأصدقاء ، ويجنبه أصدقاء السوء ؛ لما للمصاحبة من دور خطير فى أخلاق الأبناء ، وأثر بيّن فى سلوكياتهم ، كما يجب على المؤمن أن يلتمس فيمن يصادق الإيمان والأخلاق الكريمة، ورحم اللّه من قال:

لا تسأل عن المرء وسل عن قرينه إن القرين بالمقارن يقتدى

وفى هذا المعنى الحديث النبوى : « المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» (١) .

وقريب منه ما جاء فى منظومة ابن عاشر فى معرض حديثه عن تزكية النفس :

---

(١) أخرجه الترمذى .

يَصْحب شيخا عارف المسالك يقيه فى طريقه المهالك
يذكره الله إذا رآه ويوصل العبد إلى مولاه

وأرانى فى حل الآن من توضيح الإشكال الذى تعمّده البعض فى بيان معنى ما سبق، ولكن الذى يستحق التذكير هو التحرّز والابتعاد ممّن تنسى معرفتهم شرع اللّه، وكثير ما هم.

النفسية :

« البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . . » .

حقا إنك لتجد النفس هادئة ليس لها ما ينفرها أو يزعجها حين تكون المبرات والأفعال الخيرية، وتتهلل لها ؛ لأنها تتوافق مع ما خلقت له وما طبعت عليه ، وبعد هذا الاطمئنان يأتى ركون القلب واطمئنانه ، ولذا كان النداء الربانى : ﴿ يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً . فادْخُلِي في عِبادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٣٠] .

أما إذا خامر القلب إثم،فإنه سيتحرج ويضطرب لاضطراب دوافع الخير وتصارعها مع نوازع الشر ، ويحمى الوطيس بينهما حتى تغلب إحداهما الأخرى ، فإن كانت الغلبة لقوى الخير انشرح الصدر ، وإلا فإن صاحبها ــ وإن غلب عليه الشر ــ يكون له وقت تصفو فيه نفسه بعد إقدامه على جريمته ، وتنجلى غمامة الشرّ ، وتبرد نيران الغضب ، وتهدأ عواصف الأنانية والانتقام والبغى مهما غالط الإنسان نفسه فإنها تؤنبه على فعلته حتى وإن انفلت من جميع الروادع الخارجية والزواجر المادية، فإنه لن يستطيع التهرب أبدًا من ضيق الصدر وانقباض النفس والأرق والقلق، ويظل شبح الجريمة يلاحقه آناء الليل وأطراف النهار ولا يفلته أبدًا حتى إننا رأينا من يقوم منزعجا وجلا ترتعد فرائصه من حلم متكرر يرى فيه جريمته ، وربما تمثلها فى يقظته ، وقد تؤدى تلك الحال إلى الهوس والجنون ــ والعياذ باللّه ــ أما كان يكفى هؤلاء ميزانا لتصرفاتهم قول النبى الكريم : « والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر » ؟ !

الأخلاقية :

« . . . البرّ حسن الخلق . . » .

الأخلاق فى الفلسفات الأرضية مهما كانت منطلقاتها عرجاء ؛ لأنها تنظر إلى الأخلاق من زاوية واحدة محدودة ومن جانب أرضى آنى قاصر . بينما عدد القرآن الكريم مظاهرها وبين أسسها وقواعدها ؛ فالأخلاق فى الإسلام ليست مدينة أفلاطونية

خيالية ، بل هى مبادئ سامية جسّدها فى الواقع العملى رسول اللّه ﷺ ، فلقد وصفه ربّه قبل زوجته بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم : ٤] : وقالت عائشة فى معرض حديثها الشيّق عنه ﷺ: كان خلقه القرآن .

وتقوم الأخلاق الإسلامية على ثلاثة محاور :

أ ـ التخلق مع ربّ الكون بالإيمان به وحمده على نعمه وامتثال شريعته .

ب ـ التخلق مع المخلوقين بفعل الخير أو حتى بمحبته لهم وكف الأذى عنهم .

جـ ـ التخلق مع النفس بقيادتها إلى ما يرضى ربها ، وعدم إلقائها فى التهلكة ، ولقد جمعت أصول الأخلاق الآيات الواردة فى سورة البقرة ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلا أن بر الوالدين يتقدم البرّ بالمخلوقين عموما لما للآباء من فضل على الأبناء .

فقه الدعـوة

كثيرا ما يتراجع بعض العاملين فى حقل الدعوة على بعض الأحكام الشرعية ، وأعنى بها على الخصوص الرخص التى منحها لنا اللّه وحبانا بها أمام تردّد فى النفس ، أو ضيق فى صدور العامة والجهال منهم بالذات .

ولكن يجب على الداعية ألا يلتفت إلى شىء من ذلك ، ما دام بين يديه الدليل الشرعى ، ولا يتباطأ فى العمل والفتيا به كقصر الصلاة فى السفر ، والفطر فى السفر، والمرض ونحوها .

ومن المؤسف حقا أننا نجد من يحكم رأيه فى حكم القصر فى رمضان ، فيذهب إلى حد الاستغناء عن هذه الرخصة بالمرة ، والعدول عنها بحجة أن وسائل السفر اليوم هى غير تلك التى كانت تلحق من جرائها المشاق ، ولكن هؤلاء جهلوا أن علة القصر ليست الإتعاب بل مجرد السّفر .

وقد كان النبى ﷺ أحيانا يأمر أصحابه بما لا تنشرح به صدور بعضهم فيحجمون، اندهاشا وتثبتا لا عصيانا وتعنتًا ، كما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة فكرهه من كرهه منهم .

وكما أمرهم بنحر هديهم والتحلل من عمرة الحديبية فكرهوا الرجوع بلا عمرة . وكرهوا مفاوضته لقريش على أن يرجع من عامه ، وعلى ردّ من أتاه منهم فارّاً بدينه إليهم .

إذًا ما ورد فيه نص فليس للمؤمن إلا الامتثال﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وينبغى أن نتلقى ذلك بانشراح فى الصدر ، وطمأنينة فى النفس ، قال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

تطبيق

١ ــ انحصر مفهوم البر لدى الكثير من المسلمين فى ركعات يؤديها اعتياديا ، ويقيس بها إيمانه وصلاحه : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

وأما من الناحية الاجتماعية ، فلقد أصبح المسلم سلبيا إلى أبعد الحدود ، حتى ارتسم فى أذهاننا الفارق بين العربى ، ولا أقول : المسلم ، والأوربى هو فارق بين الجد والكسل ، وهو الفارق بين الأمانة والخيانة ، وبين الصدق والكذب . . وهلم جرّا .

٢ ــ لقد أصبح الإثم اليوم هو البضاعة المشاعة المعلن عنها بالوسائل الإعلامية والتشهيرية، واطلع عليه العاقل والجاهل والصغير والكبير الكل يرى ، والجلّ يعيش ويرتع ولا رادع ، ألا هل من رادع لهذه القبل المحمومة ، والحركات المثيرة ، والآهات المغرية بالأفلام والمسارح والأندية . . . و . . . و . . ؟ ! ألا هل من حام لأموال المسلمين المسلوبة ، وأعراضهم المهتوكة ، والمقدسات المغصوبة أمام اللّه والناس والأعراف . والقوانين ، والهيئات ، والمنظمات ، والنداءات ، والاحتجاجات؟!

٣ ــ قل حياء البعض فراح يتحايل على اللّه لا على أهل الفتوى ــ فى حقيقة الأمر ــ لدى استفساراته واستفتاءاته حتى يجد مصوّغا يدلف منه إلى الحلال ، وهو معفّر بالحرام ، وإنك لتجد هذا فيمن يبحثون عن أحكام الطلاق خاصة ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون .

الحديث الثامن والعشرون

عن أبى نجيح العرباض بن سارية ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ قال : وعظنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا : يا رسول اللّه ، كأنها موعظة مودّع فأوصنا، قال:« **أوصيكم بتقوى اللّه ــ عز وجل ــ والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** » رواه أبو داود والترمذى ، وقال :حديث حسن صحيح

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه من رواية ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان،عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى رضى اللّه عنه، زاد أحمد فى رواية له وأبو داود : وحجر بن حجر الكلاعى ،كلاهما عن العرباض رضى اللّه عنه ، وقال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحافظ أبو نعيم : هو حديث جيد ، فى صحيح حديث الشّاميّين ، قال : ولم يترك له البخارى ومسلم من جهة إنكار منهما له ، وزعم الحاكم أن سبب تركهما له أنهما توهّما أنه ليس له راو ، عن خالد بن معدان عن ثور بن يزيد .

وقد رواه عنه أيضا بجير بن سعد، ومحمد بن إبراهيم التميمى، وغيرهما .

قلت: ليس الأمر كما ظنه وليس الحديث على شرطهما، فإنهما لم يخرجا لعبد الرحمن

وجلت : خافت واضطربت .

ذرفت : سالت .

عبد : على سبيل الافتراض ؛ لأن العبد ليس من أهل الافتراض ، وطاعة أولى الأمر واجبة ،ما لم يأمروا بمعصية . قال تعالى : ﴿ ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ [النساء : ١٤١] .

عليكم : أى الزموا

عضوا : كناية عن شدة التمسك بها .

بالنواجذ : جمع : ناجذ ، وهو آخر الأضراس من الجانبين أعلى وأسفل .

محدثات الأمور : أى التى ليس لها أصل فى الدين : من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس صحيح .

ابن عمرو السّلمى ولا لحجر الكلاعى شيئا ، وليس ممن اشتهر بالعلم والرواية، وأيضًا فقد اختلف فيه على خالد بن معدان فروى عنه كما تقدم .

وروى عنه ابن عمرو عن أبى بلال عن العرباض ، وخرجه الإمام أحمد من هذا الوجه أيضا،عن ضمرة بن أبى حبيب،عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى،عن العرباض خرجه من طريقه الإمام أحمد وابن ماجه ، وزاد فى حديثه : « فقد تركتكم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » ، وزاد فى آخر الحديث : «فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد » .

وقد أنكر طائفة من الحفاظ هذه الزيادة فى آخر الحديث وقالوا : هى مدرجة فيه وليست منه . قال أحمد بن صالح المصرى وغيره : وقد خرّجه الحاكم ، وقال فى حديثه : وكان أسد بن وداعة يزيد فى هذا الحديث : « فإن المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد » .

وخرجه ابن ماجه أيضا من رواية عبد اللّه بن العلاء بن زبير : حدثنى يحيى بن أبى المطاع سمعت العرباض فذكره ، وهذا فى الظاهر إسناد جيّد متصل ، ورواته ثقات مشهورون ، وقد صرح فيه بالسماع .

وقد ذكر البخارى فى تاريخه : أن يحيى بن أبى المطاع سمع من العرباض اعتمادا على هذه الرواية ، إلا أن حفاظ أهل الشام أنكروا ذلك وقالوا : يحيى بن أبى المطاع لم يسمع من العرباض ، ولم يلقه، وهذه الرواية غلط ، وممن ذكر ذلك أبو زرعة الدمشقى وحكاه عن دحيم ، وهؤلاء أعرف بشيوخهم من غيرهم . والبخارى ــ رحمه اللّه ــ يقع له فى تاريخه أوهام فى أخبار أهل الشام ، وقد روى عن العرباض من وجوه أخر (١) .

سبب ورود الحديث :

لقد كان رسول اللّه ﷺ يتخول صحابته بالموعظة والتذكير، وربما كانت الموعظة لحادثة أو شرحًا لآية نازلة ، أو تحسبا لواقعة . وهنا فهم الصحابة أن دنو أجله ﷺ وارتقابه للقاء ربه حمله على التركيز فى وعظه وتأكيده فى الوعد والوعيد .

وعلى أى حال ،فإن إيراد الوصية بالتقوى والسّمع والطاعة ، وبالاستمساك بالسنة والتحذير من الاختلاف والابتداع كان إجابة لطلب الصحابة الوصية ، وهم الحريصون على سماعها من الأب الرحيم والقائد الحكيم ، حيث جاء فى مطلبهم: كأنها موعظة

(١)انتهى نقلا عن جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم .

مودّع فأوصنا . لقد استشعروا قرب الفراق من عبارات التوديع وإشارات الرحيل ، وكانوا يقدّرون تلك الفاجعة ، وأى مصيبة أفجع من وفاة خير البشر ، هادى البشرية الذى أوقف حياته كلها يذب عن هذه الأمة ويرعاها حتى لا تفترسها الشياطين ؟!

إنه انقطاع السماء عن الأرض ، للّه درّك يا رسول اللّه الذى وصفك بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

فبادر الصحابة يتزودون بوصاياه التى تنير لهم دروب الحياة ، وتمدهم بالطاقة التى تخولهم أن يكونوا خلفاء اللّه فى الأرض ، وورثة جنانه ، وهنا تدفقت عبارات الوصية شاملة لخيرى الدارين .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ ــ العلمُ بمواعيد الآجال وحدها دقيقة من دقائق الغيب الذى استأثر اللّه به.

والإيمان بهذا من أساسيات عقيدة المؤمن ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤] .

ولن يكشف أحد عن أجله ــ مهما كان ــ وربما استشعر بدنوّه الشيخ الكبير لهرمه، أو المتوعك لمرضه ، ولكن التحديد من خصوصيات علام الغيوب . وهذا سيد الوجود عليه السلام تنعى إليه روحه من السماء ، وتنزل عليه سورة «النصر»﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، قال مقاتل: لما نزلت قرأها النبى ﷺ على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ، ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس ، فقال له النبى ﷺ : « ما يبكيك يا عم ؟ » قال : نعيت إليك نفسك ، قال : « إنه لكما تقول »، فعاش بعدها ستين يومًا ما رئى فيها ضاحكًا مستبشرا ، ومع كل ذلك فلم يتم الإعلان عن الموعد المضروب لأجله بالتحديد ﷺ ، وذى عبارات عديدة وردت فى أحاديثه الشريفة ، تشهد لما أقول كتعريضه بالتوديع فى خطبة حجة الوداع حيث قال فيها : « . . لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » ،وطفق يودع الناس ، فقالوا :هذه حجة الوداع ، ولما رجع من حجه إلى المدينة جمع الناس بماء بين مكة والمدينة يسمى خمًا وخطبهم ، وقال : « يأيها الناس إنما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتينى رسول ربى

فأجيبه » ، ثم حضّ على التمسّك بكتاب اللّه ، ووصى بأهل بيته خيرًا (١) .

وعن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه قال: صلى رسول اللّه ﷺ على قتلى أحد، ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات فقال: «إنى فرطكم على الحوض ، فإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكن أخشى عليكم الدنيا ، تتنافسوا فيها ،فتقتلون ؛ فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم »(٢).

قال عقبة رضى اللّه عنه: فكان آخر ما رأيت رسول اللّه ﷺ على المنبر . وخرجه الإمام أحمد ولفظه : صلى رسول اللّه ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : « أيها الناس ،إنى فرطكم وأنا شهيد عليكم، وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه ، ولست أخشى الفقر ، ولكن الدنيا أن تنافسوها ».وخرج الإمام أحمد أيضا عن عبد اللّه بن عمر ــ رضى اللّه عنهما ــ قال : خرج علينا رسول اللّه ﷺ يوما كالمودع فقال : « أنا محمد النبى الأمى » قال ذلك ثلاث مرات « ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعلمتكم خزنة النار وحملة العرش ، وتجوّز لى ربى ، وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب اللّه ، أحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه »

ولعله عرض بمثل هذا فى خطبته التى أشار إليها العرباض بن سارية فى حديثه.

علم السلوك:

١ــ إنّ لين القلب وخشوعه دليل على صحته الإيمانية وشفافيته وإخلاصه ، ولأن العبرة عند اللّه بهذه المضغة ، امتدح المؤمنين الصادقين حين خشعت قلوبهم ، واقشعرت جلودهم ، وفاضت أعينهم وجلا من اللّه، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِن

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجاه فى الصحيحين ، واللفظ لمسلم .

الْحَق ﴾ [المائدة : ٨٣].

وفى المقابل وصف الحق سبحانه أقواما ران على قلوبهم بالجفاء والغلظة حتى وكأن قلوبهم فى أغطية ملفوفة تحجبها عن أشعة النور، فقال : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] ، بل ولقد وصفهم بالأنعام : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، إذًا فمحط الخشوع هو القلب والجوارح متصلة بنياط القلب ، فهى حيّة بحياته صالحة بصلاحه ، أو ميتة بموته ، وساكنة بركوده ، ولعل العين هى أكبر ترجمان لما يعترى القلب ؛ لذا جاء ذكرها بعد ذكر القلب لا قبله فى حديث أبى نجيح هذا: «وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون » .

غير أننا نرى اليوم من يدعى الزهد فى الحياة ، ويظهر رعدة عند ذكر اللّه تعالى ، وربما رفع صوته جهارا فى الأسواق والطرقات باسم اللّه ، ولكن بأعين لا تدمع ، وجوارح لا تتورّع ، وما ذلك إلا لخلل إيمانى فى المحرك الأساسى ــ القلب ؛ لذا قال عمر فى رجل رآه يصلى ــ وهو يعبث بلحيته وأطرافه ــ : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

٢ ــ من قوله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها . . » نستنتج ما يلى :

إن الوصية بالسنة ، والتمسك بها ، والعمل بمحتواها واردة فى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] ، كما علق القرآن الكريم محبّة اللّه لعباده باتباع سنة محمد ﷺ ، وبهذا التعليق قول نبيه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فالتمسك بالسنة ضمان من الزيغ والانحراف ، ونجاة من التيهان فى ظلمات البدع وضلالات الاختلاف ، وعصمة من التشرذم والافتراق . ولعل قائلا يقول : إن التمسك بسنن الأصحاب ــ رضوان اللّه عليهم ــ مدعاة إلى ذلك ، ولكن الحقيقة والواقع غير ذلك تماما، حيث إن النبى ﷺ وصف هؤلاء الخلفاء بالرشد الذى هو معرفة الحق واتباعه، وبالهداية أيضا، فاللّه لا يضلهم أبدًا، ثم إن سننهم من سنن النبى ﷺ بدليل التعبير النبوى: «عضوا عليها بالنواجذ » ،ولم يقل : عليهما ، والتاريخ الإسلامى نفسه

يشهد أنه لم تكن هناك طرائق متعددة لكل طريقة صحابى يتزعمها ، ويقود الناس على نهجها المتميز عن بقية الطرائق الأخرى مثلما هو الشأن بالنسبة لأهل الطرق المبتدعة : كالتيجانية التى تنسب إلى أبى العباس أحمد التيجانى والتى يزعم أصحابها أن قراءة ما يسمى بالصلاة الفاتحية ، تعدل ختم القرآن الكريم آلاف المرات ــ والعياذ بالله ــ وغيرها .

ومن بدع هذه الطرائق التى تخالف سنة المصطفى ﷺ ، وما جرى عليه سلف هذه الأمة من الصالحين وأهل التصوّف السنى الحقيقى أمثال الجنيد (١) والقشيرى (٢) والمحاسبى (٣) .

قلت : مما ابتدعوه فى الدين وخالفوا به كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ونهج خلفائه من بعده :

١ ــ التقيد بأذكار معينة ــ لم ترد صيغها ــ وتحديد العدد ، أو ما يسمى بالورد ، أو رفع السبحة . ويعنون بذلك أوقاتها ، وصيغها المعينة ، وأعدادها فى حين أن القرآن الكريم أمر بالذكر والتسبيح أمرا مطلقا ، بل وحث على الإكثار فقال : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ : ٤٢] وكذا الشأن فى السنة النبوية فلَم يرد عن رسول الله ﷺ مطلقا أن حدّد الأذكار لصحابى معيّن شأن أولئك الطرقيين، ولا حتى عن صحابته ومن تبعهم واقتفى أثرهم ، بل ورد إنكارهم لذلك ونهيهم الشديد عنه ، ومن ذلك ما نقله أبو إسحاق الشاطبى عن أبى وضاح ، عن الأعمش ، عن بعض أصحابه قال : مرّ عبد الله بن مسعود برجل يقص على أصحابه وهو يقول : سبحوا عشرا ، وهللوا عشرا . فقال عبد الله: إنكم لأهدى من أصحاب محمد ﷺ أو أضل بل هذه ــ يعنى أضل . وجاء عنه أيضا : أنّ أناسا يسبحون بالحصى فى المسجد ، فأتاهم وقد كوم كل رجل منهم كوما من حصى قال : فلم يزل يحصيهم بالحصى حتى أخرجهم من المسجد، ويقول : لقد أحدثتم بدعا وظلما ، وقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علما .

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادى الصوفى من العلماء بالدين إمام الدنيا فى عصره ، عده العلماء شيخ مذهب التصوّف ، توفى سنة ٢٩٧ هـ . الأعلام للزركلى ٢ / ١٣٧ .

(٢) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابورى القشيرى ، من بنى قشير بن كعب شيخ خراسان فى عصره ، زهدا وعلما بالدين ،كتابا وسنة، من أشهر آثاره : الرسالة القشيرية ، ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفى سنة ٤٦٥ ، الأعلام للزركلى ٤ / ٥٧ .

(٣) هو الحارث بن أسد أبو عبد الله (١٦٥ ، ٢٤٣ هـ) من أكابر الصوفية ، كان عالما بالأصول والمعاملات واعظا مبكيا ، له تصانيف فى الزهد وفى الرد على المعتزلة وغيرهم ، من كتبه: رسالة المسترشد .ا.هـ. الأعلام ٢ / ١٥٣ .

٢ ــ ومن بدعهم المنكرة : إعطاء العهود والمواثيق .

٣ ــ ومنه (انتصاب المشايخ وأرباب الطرق للدعاء كوسطاء ، وهذا مفسد لعقائد المريدين ويشوش عليهم فى التفريق بين مقام الأنبياء والمرسلين ، ومقام الأولياء والعارفين ، فعن مُدرك بن عمران قال : (كتب رجل إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : . فادع اللّه لى ، فكتب إليه عمر : إنى لست بنبى ، ولكن إذا أقيمت الصلاة فاستغفر لذنبك ، فمنعه عمر من طلبه وأنكر عليه كما ترى) (١) .

كما حدث ذلك لسعد بن أبى وقاص حين قدم الشّام حيث أتاه رجل فقال : استغفر لى ، فقال : لا غفر اللّه لك ولا لذاك ، أنبىّ أنا ؟ !

كما قدم آخر لحذيفة رضى اللّه عنه فقال : استغفر لى ، فقال حذيفة : لا غفر اللّه لك. ثم قال حذيفة : يذهب هذا إلى نسائه فيقول : استغفر لى حذيفة .

إن بعض أرباب الطرق وغيرهم من أهل البدع ، لا يستحيون أبدا أن يلفقوا على سلف هذه الأمة وينسبون إليهم ما لم يتفوهوا به طوال حياتهم دون أن تتوافر لديهم مقاييس الرواية أو ضوابط النقل .

ومن العارفين باللّه المظلومين،الشيخ عبد القادر الجيلاى (٢) ــ قدّس اللّه روحه ــ الذى برأ نفسه من أضاليلهم فى كتابه الغنية بقوله : (فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول اللّه ﷺ ، والجماعة ما اتفق عليه أصحابه ــ رضى اللّه عنهم أجمعين ــ وألا يكاثر أهل البدع ، ولا يدانيهم ، ولا يسلم عليهم ؛ لأن الإمام أحمد قال : من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه لقوله ﷺ :« أفشوا السلام بينكم تحابوا» ولا يجالسهم ، ولا يعزيهم ولا يهنئهم فى الأعياد وأوقات السرور، ولا يصلى عليهم إذا ماتوا ، ولا يترحم عليهم إذا ذكروا ، بل يباينهم ويعاديهم فى اللّه ــ عز وجل ــ معتقدا محتسبا بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير) .

ولست هنا بحاصر كل ما ابتدعوه ، إنما كان ذلك على سبيل المثال .

مصطلح الحديث :

السنة عند علماء اللغة : الطريقة أو السيرة ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ، جاء فى الحديث : « من سن سنة حسنة،فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة،

---

(١) أخرجه الطبرانى .

(٢) ولد فى جيلان وكان مدرسا ببغداد له (الفتح الربانى ، والفيض الرحمانى) فى التصوف . و(الغنية لطالبى طريق الحق) توفى سنة ٥٦١ هـ ،١١٦٦ م .

ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » إلا أن كلمة السنة عند الإطلاق تنصرف إلى الطريقة المحمودة المستقيمة ، فإذا قيل : فلان من أهل السنة كان معناه أنه من أهل الطريقة المحمودة (١) .

السنة فى الاصطلاح :

والسنة فى اصطلاح علماء الحديث تعنى أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخُلقية والخَلقية وسيرته قبل البعثة وبعدها (٢) ، وهى بهذا المعنى ترادف معنى الحديث عند المحدثين .

ـ وقد تطلق السنة ويراد ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه ، أى : على الواقع العملى ، أى : ما جرى عليه العمل فى عهد النبى ﷺ .

ـ وتطلق أيضا على ما جرى عليه العمل فى عهد الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ سواء كان مستند ذلك العمل نصا فى القرآن الكريم، أو فى السنة النبوية الشريفة، أو ما لم يعرف مستندهم فى فعلهم سنة نبوية ثبتت عندهم ، ولم تنقل إلينا ، وإنما نقل تطبيقها من قبلهم ، أو كان مستند عملهم إجماعا منهم أو من خلفائهم الراشدين ، ويدل على صحته إطلاق السنّة على هذا المعنى الحديث الذى نحن بصدد البحث فى معانيه : « فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » .

الفرق بين السنة والحديث ، والخبر والأثر :

أولا: تجدر الإشارة إلى القول الراجح فى تعريف الخبر والأثر والحديث ، حيث إنها مصطلحات مترادفة ، ومن ثم يصح إطلاق أى منها على ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة ، كما أن السّنة هى الأخرى تعطى هذا المعنى أيضا إذا اطلقت وأريد بها هذا المعنى، إلا أنها تطلق أيضا ـ كما سبق وأن بينت ـ على الواقع العملى الذى كان عليه عصر النبى ﷺ ، وكذا صحابته الكرام فى تطبيق معانى الشريعة الإسلامية.

أقسام السنة :

تنقسم السنة إلى أقسام كثيرة من نواح مختلفة ، ولا بأس أن نتعرّض فى هذه العجالة إلى بعضها بشكل مقتضب حتى ندرك حقيقة السنة التى أكد صاحبها عليه

---

(١) لسان العرب لابن منظور ،مطبعة بولاق ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) أعلام المحدثين ، محمد محمد أبو شهبة بمصر سنة ١٩٦٣ ص ٣٩ ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للدكتور مصطفى السباعى ص ٥٩ .

الصلاة والسلام على الاستمساك بها .

أولا : من حيث حقيقتها :

فمن ناحية حقيقتها تنقسم إلى سنة قولية ، وسنة فعلية ، وسنة تقريرية :

أ ـ السنة القولية : هى أقوال النبى ﷺ التى صح نقلها إلينا والتى تزخر بها بطون الصحاح وذلك كقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات . . . . » .

ب ـ والسنة الفعلية : هى أعماله ﷺ كصلاته وحجّه التى تعتبر تبيانا للأحكام الشرعية .

جـ ـ والسنة التقريرية : هى إقراره لفعل فعله صحابته أمامه ، وعلم به ويعد هذا الإقرار سنة .

ثانيا : من حيث الرواية :

يقرر العلماء أنّ السنة إما أن تكون متواترة ، وإما أن تكون أخبار آحاد وهى بحسب اتصال السلسلة أو انقطاعها تنقسم إلى :

أ ـ الأحاديث التى لا يتصل سندها برسول اللّه ﷺ وهى :

ـ **المرسل** : هو الذى اتصل سنده إلى التابعى ولا يذكر الصحابى الذى رواه .

ـ **المنقطع** : هو الذى انقطع فيه أحد الرواة بين التابعى وراوى الحديث .

ـ **الموقوف** : هو ما قاله الصحابى من غير أن يسنده إلى النبى ﷺ .

ب ـ الأحاديث المتصلة ومراتبها :

ـ **الصحيح** : ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله ، وسلم من شذوذ وعلة .

ـ **الحسن** : عرفه ابن تيمية بقوله : الحسن ما تعددت طرقه ولم يكن فيهم متهم بالكذب ، ولم يكن شاذا .

ـ **الضعيف** : كما عرفه النووى : ما لم توجد فيه شروط الصحة ، ولا شروط الحسن ، بأن كان رواته غير عدول ، ولم يكونوا مستورين .

إلى هنا أكون قد أشرت بإيجاز إلى التقسيمات الكبرى للسنة وبيان حقيقتها ، وأرشد القارئ بعدم الاكتفاء بهذه الإشارات وأحيله فى التعمق والتثبت إلى كتب المصطلح المعروفة .

الأصولية :

١ــ حجية السنة :

السنة هى المصدر الثانى بعد القرآن الكريم من مصادر التشريع الإسلامى ،كما أجمع فقهاء المسلمين على الاحتجاج بها واعتبارها مصدرا للفقه الإسلامى ، وقامت الأدلة على إثبات حجيتها .

منها قوله تعالى : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه** ﴾ [النساء : ٨٠] ،ومنها أيضا: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول** ﴾ [النساء: ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وقال: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

٢ ــ علاقة السنة بالقرآن :

السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم وذى آية شاهدة على ذلك : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل : ٤٤] ، ومن بيان السنة للقرآن أنها :

أ ــ تفصل مجمله : فهذه العبادات المختلفة كالصلاة والزكاة ، وغيرهما جاءت مجملة؛ ففصلها النبىّ ﷺ بسنته القولية والفعلية .

ب ــ وتقيد مطلقه : كقوله : ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة : ٣٨] فالأيدى مطلقة ولكن السنة قيدتها إلى الرسغ .

حـ ــ وتخصص عامه : فمثلا فى قوله تعالى : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ** ﴾ [المائدة : ٣] وردت كلمة ﴿ **الْمَيْتَةُ** ﴾ عامة ، ولكن السنة خصتها بغير ميتة البحر والجراد ، قال ﷺ : « أحلت لنا ميتتان السمك والجراد » .

٣ ــ إجماع الصحابة :

إن إجماع الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ قد وقع بالفعل ، وهذا مما يقوّى حجة القائلين بإمكانية الإجماع ، فقد أجمعوا على أن الجدة تأخذ السدس تنفرد به الواحدة ، وتشترك فيه الأكثر من واحدة ، وكذلك أجمع الصحابة على أنه لا يجمع بين المرأة وعمتها أوخالتها ، وكذلك أجمعوا عل بطلان زواج المسلمة بغير المسلم ، وغير ذلك من المسائل التى أجمعوا عليها والتى هى أكثر من أن تحصى .

(. . واختلف العلماء فى إجماع الخلفاء الأربعة : هل هو إجماع أو حجة مع

مخالفة غيرهم من الصحابة أم لا ؟

وفيه روايتان عن الإمام أحمد ، وحكم أبو حازم الحنفى فى زمن المعتضد بتوريث ذوى الأرحام ، ولم يعتد بمن خالف الخلفاء ، وأنفذ حكمه فى ذلك فى الآفاق .

ولو قال بعض الخلفاء الأربعة قولا ، ولم يخالفه أحد ، بل خالفه غيره من الصحابة ، فهل يقدم قوله على قول غيره ؟

فيه قولان أيضا للعلماء ، والمنصوص عن أحمد أنه يقدم قوله على قول غيره من الصحابة، وكذا ذكره الخطابى وغيره ، وكلام أكثر السلف يدل على ذلك خصوصا عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه ، فإنه روى عن النبى ﷺ من وجوه أنه قال : « إن اللّه جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . وكان عمر بن عبد العزيز يتبع أحكامه ويستدل بقول النبى ﷺ : « إن اللّه جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وقال مالك : قال عمر بن عبد العزيز : سن رسول اللّه ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، والأخذ بها اعتصام بكتاب اللّه ، وقوة على دين اللّه ليس لأحد تبديلها ، ولا تغييرها ، ولا النظر فى أمر مخالفها ، من اهتدى بها فهو المهتدى ، ومن استنصر بها فهو المنصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا ، وحكى عبد اللّه بن عبد الحكم عن مالك أنه قال : أعجبنى عزم عُمر على ذلك ، يعنى هذا الكلام . وروى عبد الرحمن بن مهدى هذا الكلام عن مالك ، ولم يحكه عن عمر ، وقال خلف بن خليفة : شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب للناس ، وهو خليفة فقال فى خطبته :

ألا إن ما سن رسول اللّه ﷺ وصاحباه فهو وظيفة دين نأخذ به وننتهى إليه .

وروى أبو نعيم من حديث عزوب الكندى أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنه سيحدث بعدى أشياء فاجتهدوا إلى أن تلزموا ما احدث عمر » .

وكان على رضى اللّه عنه يتبع قضاياه وأحكامه ، ويقول : إن عمر كان رشيد الأمر .

وروى الأشعث عن الشعبى قال : إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا فيه ،كيف قضى عمر ، فإنه لم يكن يقضى عمر فى أمر لم يقض فيه قلبه حتى يشاور . وقال مجاهد : إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما صنع عمر فخذوا به . وقال أيوب عن الشعبى : انظروا ما اجتمعت عليه أمة محمد ﷺ ، فإن اللّه لم يكن يجمعها على ضلالة ، فإذا اختلفت فانظروا ما صنع عمر بن الخطاب فخذوا به .

وسئل عكرمة عن أم الولد فقال : تعتق بموت سيدها ، قيل له : بأى شىء تقول؟ قال: بالقرآن ، قيل : بأى القرآن ؟ قال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم ﴾ [النساء : ٥٩] ، وعمر رضى اللّه عنه من أولى الأمر، وقال وكيع : إذا اجتمع عمر وعلىّ على شىء فهو الأمر .

وروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : أنه كان يحلف أن الصراط المستقيم هو الذى ثبت عليه عمر رضى اللّه عنه .

وبكل حال فما جمع عمر عليه الصحابة ؛ فاجتمعوا عليه فى عصره ، فلا شك أنه الحق ، ولو خالفه من بعد ذلك من خالفه ، كقضائه فى مسائل من الفرائض كالعوْل ، وفى زوج وأبوين ، وزوجة وأبوين أن للأم ثلث الباقى .

وكقضائه فى من جامع فى إحرامه أنه يمضى فى نسكه وعليه القضاء والهدى ، ومثل ما قضى به فى امرأة المفقود ، ووافقه غيره من الخلفاء أيضا ، ومثل ما جمع عليه الناس فى الطلاق الثلاث ، وفى تحريم متعة النساء ، ومثل ما فعله من وضع الديوان ووضع الخراج على أرض العنوة ، وعقد الذمة لأهل الذمة بالشروط التى شرطها عليهم ونحو ذلك .

ويشهد لصحته ما جمع عليه عمر أصحابه ، فاجتمعوا عليه ــ رضى اللّه عنهم ــ ولم يخالف فى وقته قول النبى ﷺ : « رأيتنى فى المنام أنزع على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين ، وفى نزعه ضعف واللّه يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر أحدا يفرى فريه ، حتى روى الناس وضربوا بطعن » ،وفى رواية : « فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع ابن الخطاب » ، وفى رواية أخرى :« حتى تولى الحوض يتفجّر » .

وهنا إشارة إلى أن عمر لم يمت حتى وضع الأمور فى مواضعها واستقامت الأمور؛ وذلك لطول مدته وتفرغه للحوادث ، واهتمامه بها بخلاف مدة أبى بكر ؛ فإنها كانت قصيرة ، وكان مشغولا فيها بالفتوح ، وبعث البعوث للقتال ، فلم يتفرغ لكثير من الحوادث ، وربما كان يقع فى زمانه ما لا يبلغه ولا يرفع إليه حتى رفعت تلك الحوادث إلى عمر ، فردّ الناس فيها إلى الحق وحملهم على الصواب رضى اللّه عنه وعن أبى بكر ، وعن الصحابة أجمعين . . .) (١) .

(١) نقلا عن كتاب جامع العلوم والحكم ، لزين الدين البغدادى ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١.

٤ ــ البدعة حقيقتها وأقسامها :

البدعة ما أحدث مما لا أصل له فى الشرع يدل عليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة . قال ابن العربى : ليست البدعة والمحدث مذمومين للفظ بدعة ومحدث ولا معناهما ، وإنما يذم من البدعة ما يخالف السنة ويذم من المحدثات ما دعا إلى ضلالة . ا . هـ .

وليس فى البدع (١)التى لا أصل لها فى الشريعة الإسلامية ما يستحسن أو يُحمد كما قد يظنه البعض أو تلتبس عليهم أقوال السلف ــ رضوان اللّه عليهم ــ فى تفريعاتهم وتعريفاتهم للبدعة . حيث يقسمونها إلى حسنة وسيئة ، أو إلى بدعة ضلالة، وبدعة هدى ، والمراد هنا بالبدعة الحسنة : المعنى اللغوى للبدعة .

وهاك أحاديث وأقوال العلماء التى تدل على هذا :

منها ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جرير بن عبد اللّه البجلى رضى اللّه عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ «من سن فى الإسلام سنة حسنة،فله أجرها وأجر من عمل بها ،من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

وأخرج البخارى فى صحيحه ، عن رفاعة بن رافع الزرقانى قال : كنّا يوما نصلى وراء النبى ﷺفلما رفع رأسه من الركعة قال : « سمع اللّه لمن حمده » قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد ، حمدا كثيرًا طيبا مباركًا فيه ، فلما انصرف قال : « من المتكلم ؟ » قال : أنا، قال : « رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أوّلا». قال ابن حجر فى (الفتح) فى شرح هذا الحديث : واستدل به على جواز إحداث ذكر فى الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور . ا . هـ .

وقال النووى فى كتاب (تهذيب الأسماء واللغات) ما نصّه:البدعة ــ بكسر الباء ــ فى الشرع : هى إحداث ما لم يكن فى عهد رسول اللّه ﷺ ، وهى منقسمة إلى حسنة وقبيحة .

قال الإمام الشيخ المجمع على إمامته وجلالته وتمكنه فى أنواع العلوم وبراعته أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام ــ رحمه اللّه ورضى عنه ــ فى آخر كتاب (القواعد): البدعة منقسمة إلى واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة . قال : والطريق فى ذلك ، أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة ، فإن دخلت فى قواعد الإيجاب فهى

(١)بالمعنى الاصطلاحى لا اللغوى طبعا .

واجبة أو فى قواعد التحريم فمحرمة، أو الندب فمندوبة ، أو المكروه فمكروهة ، أو المباح فمباحه . ا . هـ . كلام النووى .

وقال ابن عابدين فى (ردّ المختار)[١] ما نصه : فقد تكون البدعة واجبة كنصب الأدلة للرّد على أهل الفرق الضالة ، وتعلم النحو المفهم للكتاب والسنة ، ومندوبة كإحداث نحو رباط ومدرسة ، وكل إحسان لم يكن فى الصّدر الأول ، ومكروهة كزخرفة المساجد، ومباحة كالتوسع بلذيذ المآكل والمشارب والثياب . ا . هـ .

وروى الحافظ أبو نعيم بإسناد عن إبراهيم بن الجنيد قال : سمعت الشافعى يقول: البدعة بدعتان : بدعة محمودة ، وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود ، وما خالف السنة فهو مذموم .

الفقهية :

« فأوصنا . . . . قال : أوصيكم بتقوى اللّه » .

أولا : الوصية :

تعريفها فى اللغة : الإيصال .

وفى الاصطلاح الشرعى : تبرع بحق مضاف إلى ما بعد الموت ، أو هى : العهد بالنظر فى شىء ، أو التبرع بالمال بعد الوفاة ، وبالتالى فهى نوعان : مادية، ومعنوية.

سند مشروعيتها : كانت الوصية واجبة للوالدين والأقربين فى صدْر الإسلام ، ثم نسخ حكمها ، وبقى ندبها غالبا ، أمّا من عليه حق من الحقوق فهى واجبة عليه .

وورد فى مشروعيتها ما يلى : قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٦] ، وقال عز من قائل : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء : ١١] .

وفى الوصية المعنوية روى ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شىء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[٢] .

أما الوصية لبعض الأبناء دون الآخرين بحيث تحرم الإناث من الميراث، فقد حرّمها الإسلام، بل وعدّها من الكبائر، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة اللّه تعالى ستين سنة،ثم يحضرهما الموت فيضاران فى

---

(١) رد المختار على الدر المختار ١ / ٣٧٦ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .

الوصية فتجب لهما النار » ، وقرأ أبو هريرة : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ [النساء : ١٢] (١) .

والوصية فى الثلث لغير الوارث ، وأما الوارث فلا تجوز له إلا إذا أجازها الورثة ، عن أبى أمامة رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول فى خطبته عام حجة الوداع : « إن اللّه قد أعطى لكل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » (٢) .

ثانيا : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق :

أوجب الإسلام طاعة ولاة الأمور المسلمين ، وجعلها فى المرتبة الثالثة بعد طاعة الخالق سبحانه وتعالى ، وطاعة رسوله عليه السلام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وحتى إن الرسول الكريم ﷺ جعل طاعة الأمير من طاعته ، وعصيانه من معصيته. عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « من أطاعنى فقد أطاع اللّه، ومن عصانى فقد عصى اللّه ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » (٣) .

والطاعة الواجبة للأمراء مقيّدة بقيود ثلاثة :

١ ــ أن يكون هذا الأمير من جملة المسلمين ، لا من غيرهم ، والمتفهم للآية السابقة يطمئن لما نقول ﴿ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

٢ ــ وتجب طاعته ما لم يأمر بمعصية ، ففى المسند عن أنس أن معاذ بن جبل ــ رضى اللّه عنهما ــ قال : يا رسول اللّه ، أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك، ولا يأخذون بأمرك فما تأمر فى أمرهم ؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : «لا طاعة لمن لم يطع اللّه ــ عز وجل ».

٣ ــ كما يحرم الخروج على الإمام ما دام آتيا بأركان الإسلام ، حاكما بما أنزل اللّه، حتى وإن حدث فسقه. أقول: حدث لأن بيعة الفاسق لا تنعقد، وللّه درّ ــ المكرم وجهه ــ ابن أبى طالب حيث قال : أمير غشوم خير من فتنة تدوم. عن عوف بن مالك رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قيل : يا رسول اللّه ، أفلا ننابذهم بالسيف ؟ فقال :« لا

(١) رواه أبو داود والترمذى بسند صحيح .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى .

ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يدا من طاعة » (١) .

ثالثا : السنة فى مصطلح الفقهاء :

السنة فى اصطلاح الفقهاء: هى ما صدر عن النبى ﷺ من فعل أو قول أو تقرير.

ولم يرد فى تعريفهم ذكر صفات النبى ﷺ الخلقية ؛ لأن ذلك مردّه إلى شغف المسلمين فى نقل كل ما له علاقة بالنبى ﷺ ولا يدخل فى نطاق ما يستدل به على تشريع الأحكام .

وتارك السنة لا يثاب،بل يعاتب يوم القيامة من قبل صاحبها عليه الصلاة والسلام.

السياسية :

١ ــ إن نظام الحكم فى الإسلام يقوم أساسا على مبدأ الشورى ، وعدم الانفراد بالرأى والاعتداد بالعقل .

بدءًا من تولى الولاية، ومرورا باتخاذ القرارات، وإصدار الأحكام المعالجة للحالات المستجدة فى المجتمع .

فالحاكم لا تفرضه قوته ، ولا حسبه ونسبه ، وليس لأى أحد مهما كان أن يورث قيادة الأمة لبنيه ، أو لمن شاء من ذويه ؛ لأنه لا يملك ديمومتها لنفسه فضلا عن غيره ، فهو الحاكم فى شؤون المسلمين ما دام قائما بشريعة الله مراعيا لحدوده ؛ فإذا انحرف عن هذا المسار فللرعية أن ترى من يقودها فى نهج ربها .

والإسلام لا يضع حـدودا زمنـية لمـدة تقلد الحكم ، كما تسير عليه بعض النظم السياسية اليوم ، بل يقيدها بالاستقامة على الصراط الإلهى فحسب ، فللحاكم التقى الورع أن يبقى فى دفة الحكم ما بقى ورعه وتقواه . وعليه فنظام الحكم فى الدولة الإسلامية ليس نظاما ملكيا مستبدا ــ كما يزعم البعض ــ وإنما هو نظام الحكم عند الأكاسرة فى ذلك الزمان .

ومن ثم ، فتمليك الحكم والدولة للأبناء من قبل الآباء ليس من الإسلام فى شىء، ولعل آل أميّة يتخذون من فعل معاوية سنداً ومصدرا ، حين أخذ الناس على مبايعة ولده يزيد ، ولكن احتجاجهم بهذا مردود لأسباب :

أولا : لأن الآية صريحة فى الأمر بالشورى وأى أمر أهم من الولاية، قال تعالى:

---

(١) رواه مسلم .

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقال: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثانيا : لأنه لم يعرف عن رسول الله ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين أنهم أوصوا بالخلافة لأهليهم ولا حتى لغيرهم ، وهذا عمر رضى الله عنه يستثنى ابنه من المرشحين لها.

ثالثا : ثم إن السنة ما كانت سنة النبى أو خلفائه الراشدين ، ومعاوية رضى الله عنه لا يعد من هؤلاء المنصوص عليهم .

عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « تكون النبوة فيكم ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة » ثم سكت (١) .

كما أن نظام الحكم الإسلامى ليس نسخة مكررة للنظم الغربية والشرقية المختلفة ، بل هو أنموذج فريد لا تضاهيه المناهج الديمقراطية أو غيرها .

٢ ــ « وإن تأمر عليكم عبد » . قد يكون ذكر العبد هنا على سبيل ضرب الأمثلة فحسب ؛ لأن ولاية العبْد لا تجوز ، وشبيه بهذا المثال قوله ﷺ :« من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة » ؛ لأنه لا يتصور أن يكون المسجد كمفحص طير ، وقد يكون إطلاق صفة العبد باعتبار ما كان .

أما إذا اعتبرنا التعبيرعلى حقيقته ، فيكون إشارة منه ﷺ إلى انقلاب الأوضاع وانخرام الموازين .

الأدبية :

لقد كانت مواعظ النبى ﷺ وخطبه تتسم بالاختصار . تراها قليلة فى مبانيها ، كثيرة فى معانيها ، وبالبلاغة ، وسحر البيان ، والروعة ، والرقة ، والعذوبة .

ولا غرو فى ذلك، فهو ﷺ إمام الفصحاء بلا منازع، وسيد البلغاء أوتى جوامع الكلم ونوابغ الحكم ، وهو المأمور بقوله تعالى : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ [النساء : ٦٣]؛لهذا كانت تهتز القلوب لموعظته،وتذرف الأعين ،وتقشعر الجلود.

(١) رواه الإمام أحمد .

فقـه الدعـوة

إن الدعوة فى سبيل اللّه ليست عواطف جياشة متحمّسة وحدها ، فكثيرا ما تقود أصحابها إلى المهالك ، ولكنها لسان بليغ ، وعقل ناضج ، وحكمة بالغة ، وحنكة ومعاناة، وخلق ، وعلم نافع ، وتخطيط محكم ، ولا معنى للدعوة ولا تأثير للداعية، إن لم تقم على تلك الدعائم الأساسية المتكاملة بحيث لو تفرقت تلك الدعائم بطل مفعولها ، وأضحى صاحبها كالذى يحز فى غير مفصل ، لذا قال تعالى لسيد الدعاة : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

ومن الحكمة مراعاة نفسيات المستمعين ، وتخير الأوقات المناسبة لهم ، واهتبال الفرص السانحة ، جاء فى الصحيحين عن أبى وائل قال : كان عبد اللّه بن مسعود يذكرنا كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إنا نحب حديثك ونشتهيه ولوددنا أنّك تحدثنا كل يوم ، فقال : ما يمنعنى أن أحدثكم كل يوم إلا كراهة أن أملكم. إن رسول اللّه ﷺ كان يتخولنا . كما خرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث الحاكم بن حزم رضى اللّه عنه قال : شهدت مع رسول ﷺ الجمعة فقام متوكئا على عصا أو قوس ، فحمد اللّه وأثنى عليه كلمات خفيفات طيبات مباركات .

تطبيق

أولا : يزعم بعض أدعياء الدعوة أن الإسهاب فى الموعظة حكمة من حكم الدعوة إلى سبيل اللّه ؛ لذا تجدهم يخوضون فى الموضوع ولا يريدون تركه حتى تمله الأسماع، وتسأم منه النفوس ، وتتبرم منه الأفئدة .

وربما تخلص السّامعون من ركاكة محدثهم بالتثاؤب والخلود إلى النوم أو بالتيهان فى عالم الخيال ، ومع كل هذا يسترسل الخطباء فى خطبهم غير عابئين بنفسيات من يخطبون فيهم ؛لأنهم يعجبون بما يقولون ، هذا هو المقياس عندهم ، ولكن انظر معى إلى رسول اللّه ﷺ وهو يحدث صحابته عقب صلاة الصبح ، فعن أبى أمامة قال : أمر رسول اللّه ﷺ أصحابه حين صلوا العشاء :«أن احشدوا فإن لى إليكم حاجة»، فلما فرغوا من صلاة الصبح قال : «هل حشدتم (١) كما أمرتكم ؟ » قالوا : نعم . قال:« اعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا ، هل عقلتم هذه ؟ » ثلاثا ــ قلنا : نعم ، قال: « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، هل عقلتم هذا ؟ » ثلاثا ، قلنا : نعم ، قال : «اسمعوا

(١) حشد يحشد : جمع ، أو القوم دعوا فأجابوا مسرعين .

وأطيعوا هل عقلتم هذا ؟ » ثلاثا ، قلنا : نعم ، . قال: فكنا نرى أن رسول الله ﷺ سيتكلم كلاما طويلا ، ثم نظرنا فى كلامه فإذا هو قد جمع لنا الأمر كله بهذين الأصلين وصىّ النبى ﷺ فى حجة الوداع فى خطبته أيضا.

ثانيا :رغم تعدّد وسائل الدعوة فى سبيل الله وتطورها ومع كل هذا فإن المواعظ اليوم لا تتعدّى الأسماع ، وربما أعجب السامع بخطبة الخطيب ، ودرس المدرّس من جهة إجادته ، ودقة تعبيره ، وإحكام سبكه ، وسلاسة أسلوبه دون أن يحدث فى نفسه شيئا أو أن يجد عنده صدى وَمَرَدُّ هَذَا فى اعتقادى إلى أحد السببين :

أ ــ عدم اقتناع المتحدث بما يقول أو عدم تطبيقه للمبادئ التى يدعو إليها ، وفى هؤلاء يقول الحق سبحانه : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾[البقرة : ٤٤] . ويعاتبهم الشاعر العربى فيقول :

ألا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لاتنْه عنْ خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وأنّبتْ عربية أحَدهم فقالت :

أصبحت تنهى ولا تنتهى ... متى تلحق القوم يا أكوع

ويا حجر السن متى تنقضى ... تسن الحديد ولا تقطع

ب ــ حين يغوص المذنب فى بحر الخطايا ويضل مصرّا على اجتراح السيئات يطبع الله على قلبه بطبع الران ، قال تعالى : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٤] ،وعندها تفقد الحواس مفعولها فلا القلب هو القلب ، ولا الأذن هى الأذن : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ؛ولهذا قل تأثير هذه الجمهرة من الخطباء والوعاظ والمرشدين فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة التى تحتشد فى صحون المساجد وبهواتها ،ثم لا تلبث أن تنطلق فى الشوارع والأزقة والمساكن لتعب من الآثام حتى الثمالة .

ثالثا : لعل فى قوله ﷺ : « وإن تأمر عليكم عبد حبشى » ما يعزز الرأى الذى ذهبنا إليه فى شرحنا للهدف السياسى المستنبط من الحديث الثانى ، أى : حديث جبريل عليه السلام.

وهو إخبار منه ﷺ عن تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية وانتشار الفوضى وعدم استتباب الأمن، وانخرام موازين العدل فى المجتمعات الإسلامية، حتى يتقلد العبيد مقاليد الحكم وسدة الخلافة والحكم وإذا كان ذلك كذلك فعلى العدل والمساواة السلام.

والمتتبع لتاريخنا الإسلامى يرى جليًا تلاعب الملوك بأمر البلاد وعدم تقديرهم للولاية حق قدرها ، حتى ورثوها صبيانا وغلمانا لا طاقة لهم برعاية شؤونهم الخاصة، بل هم تحت رعاية الأوصياء ، وكثيرا ما خان الأوصياء وغدروا بمن استوصوا فيه خيرا ككافور الإخشيدى الذى كان وصيًا على ابن الإخشيد ــ أبى القاسم أنوجور ــ وكان مملوكا لوالده الإخشيد ملك مصر آنذاك وفيه يقول أبو الطيب :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

رابعا : قوله ﷺ : « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا » نبوءة صادقة ، وإخبار عن غيب واقع فى تاريخ أمتنا الإسلامية له ما يعضّده من شهداء الحق وعلماء الشريعة الذين يحزنهم تنكب صراط السنة، وانغماس الأمة فى مزالق الاختلافات الهامشية العقيمة فهذه شهادة عبد اللّه بن مسعود مستوحاة من الرصيد النبوى الذى يملكه ويفهمه ، ومن إرهاصات تلك الحقبة حيث قال : إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة وإنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأوّل .

ويقول مالك ــ رحمه اللّه ــ:

لم يكن شىء من هذه الأهواء فى عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان ، وهو يشير بذلك إلى ماحدث من التفرق فى أصول الدين من أمور الخوارج (١)،

(١) الخوارج : تكونت هذه الطائفة إثر قبول الإمام على للتحكيم يوم صفين، ونادى أتباعها بـ : لا حاكم إلا اللّه؛ ولذلك يسمّون بالمحكمة ، وطلبوا من الإمام على أن يقر بالخطأ بل وبالكفر ، فأبى على رضى اللّه عنه ، وكان رأيه حازما موفقا ، فانتقلوا إلى قرية قريبة من الكوفة تسمى «حروراء» وبها سمّوا بالحرورية ، وأمروا عليهم عبد اللّه بن وهب الراسبى .

قاتلهم الإمام على فى معركة النهروان وهزمهم ولكن لم يستأصل دعوتهم .

والخوارج يقولون بصحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنيه الأولى ، ويطعنون فى أصحاب الجَمَل: طلحة، والزبير ، وعائشة . ويكفرون كلا من على ــ كرم اللّه وجهه ــ وأبى موسى الأشعرى، وعمرو بن العاص . ومن آراء الخوارج التى تميزهم :

رأيهم فى الخلافة حيث يشترطون فى صحة الخلافة أن تكون باختيار حر من جماهير المسلمين ، ولا يصح له ــ أى للخليفة ــ أن يتنازل أو يحكم بعد الاختيار، وليس ضروريا أن يكون قرشيًا، بل يجوز أن يكون من غيرهم ولو كان عبدا حبشيًا .

كما يرى الخوارج أن العمل بأوامر الدين ــ من صلاة ، وصيام ، وصدقة ــ جزء من الإيمان ، فمرتكب الكبيرة عندهم كافر ومخلد فى النار .

والشيعة (١) ، والمرجئة (٢) ونحوهم .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل شتت الجدل فى الهنات والهينات هذه الفرق، وأصبحت هذه الفروع أصولا لتشرذم خطير حتى بلغت الخوارج إلى نحو العشرين فرقة أشهرها وأكثرها تداولا :

أ ـ **الأزارقة** : وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وقد حكم بكفر كل ما عداهم من المسلمين ، وحرم التزاوج بين طائفته وما عداهم ، وكذا التوارث وأكل الذبائح .

ب ـ **النجدات** : أتباع نجدة بن عامر ، ومما امتاز به تعظيمه لجريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر .

جـ ـ **الإباضية** : ورئيسهم عبد الله بن إباض التميمى ، ولا زال أتباعه بالجنوب الجزائرى ـ غرداية ، وهم أكثر مسالمة واتزانا من غيرهم ، وجوز التعامل مع غيرهم .

---

(١) الشيعة : تعد خلافة أبى بكر هى البذور الأولى لتبلور فكرة التشيع ،حيث يرى أصحابها أن الإمام عليا أولى بالخلافة من الشيخين لما يدّعوه من الوصية، ويلقبون عليا بالوصى،أى:الذى أوصى له النبى ﷺ بالخلافة من بعده ، ومما تميزوا به :

أن الخلافة أو ما يعبرون عنها بالإمامة ليست من مصالح المسلمين العامة التى تفوض إلى نظر الأمة بل هى ركن من أركان الدين ، وقاعدة من قواعد الإسلام . ويقولون بناء على ما سبق بعصمة الأئمة عن الزلل والخطأ، ويستشهدون بقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب :٣٣] .

كما يعتقدون أفضلية الإمام على على سائر الخلق بعد رسول الله ﷺ ، ولم يكتف بعض الغلاة منهم بذلك بل وصل بهم الحد إلى تأليهه فيقول أحدهم : حلّ فى على جزء إلهى ، واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ، إذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر، وبه كان يحارب الكفار، وله النصر والظفر ، وبه قلع باب خيبر، وعن هذا قال : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية : قالوا: يظهر على فى بعض الأزمان .. والرعد صوته ، والبرق تبسمه ... انتهى من كتاب الملل والنحل : للشهرستانى ١ / ٣٠٤ .

ويقولون بالتقية ، أى: التظاهر بالكفر او بأى عقيدة أو عمل لا يعتقد المستظهر به صحته إنما يفعل ذلك مدارة وحفاظا على نفسه أو عرضه أو ماله .

(٢) المرجئة: وكلمة أرجأ بمعنى أمهل وأخّر، والمرجئة: حزب سياسى محايد فى منشأ تكوينه ، وتعود بذوره إلى التطاحن الذى نشب بين الفرق المختلفة إثر مقتل عثمان رضى الله عنه ، هذه تكفر تلك وهاته تفسق الثانية، فجاءت المرجئة تسالم الجميع، ولا تكفر طائفة أو تنحاز لها دون البقية الأخرى، ثم بدأت تبحث فى الأمور اللاهوتية فى تحديد (الإيمان) و (الكفر) و (المؤمن) و(الكافر) فالإيمان عندهم هو: المعرفة بالله وبرسله، والأعمال ليست جزءا من حقيقة الإيمان ولا يدخل فيه الإيمان بالإمامة، ووصل الأمر بهم إلى أن قالوا: إن الإيمان : الاعتقاد بالقلب وإن أعلن صاحبه الكفر بلسانه، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام. وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله ـ عز وجل ـ وجعله الله ـ عز وجل ـ من أهل الجنة. ا.هـ .ابن حزم ٤/ ٣٠.

د ــ **الصفرية** : وهم تبع لزياد بن الأصفر ، ولا يختلفون عن الأزارقة فى كثير من تعاملهم.

وبلغت الشيعة إلى نحو ثلاثين ، ورفعها بعضهم إلى السبعين .

ويرجع سبب انقسامهم على أنفسهم إلى اختلافهم فى تحديد الأئمة من ذرية على ــ رضى اللّه عنهم ــ من جهة ، وكذا اختلاف حدة الغّلو فيما بينهم ، فمنهم المتوسط فى حب الأئمة المعتدل ، ومنهم المقدس المفرط فى تقديسه ، ومن أهم فرقهم :

أ ــ **الزيدية** : وهم أتباع زيد بن الحسن بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وهم أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة لقولهم بجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وعدم اعتقادهم فى نصيّة الإمامة أو عصمة الإمام .

ب ــ **الإسماعيلية** .

جـ ــ **الإمامية** .

د ــ **الراوندية** .

ولا زالت عواصف التفرق تضرب جمع هذه الأمة ، ولا زال السلاح القوّى الذى يعّول عليه أعداؤها إلى اليوم ، هو معول الهدم والتشرذم ، فتلد المعارك والمواقف طوائف جديدة تزيد من حدة هذا النزيف الذى أضعف كيان الأمة، وأفقدها هيبتها وزحزحها عن القيادة والريادة ، وتركها تتآكل داخليا .

إن أمتنا تعانى تآكلا ذاتيا من جراء انقسامها الدائم على نفسها وصدق ربنا إذ يقول:﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] . ألا فهل من صحوة يا أهل الصحوة ؟ !

خامسا : ومن المفارقات العجيبة فى حيـــاة الأمـة الإسلامية هذا الموقف الرافض لكل ما جـاء عن الخلفاء الراشدين ، أو عن بعضهم جملة وتفصيلا الذى تقفُه بعض الطوائف الإسلامية ، ويتبناه البعض من الأعلام .

ــ روى الكافى أن الباقر سئل عن المتعة . فقال : أحلها اللّه فى كتابه وسنة نبيه نزلت فى القرآن :﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ [النساء : ٢٤] فهى حلال إلى يوم القيامة ، فقيل له : يا أبا جعفر : مثلك يقول هذا وقد حرّمها عمر ؟ ! فقال: وإن كان فعل ، فقيل : إنا نعيذك باللّه أن تحلّ شيئا حرّمه عمر ، فقال الباقر: أنت على قول صاحبك فأقبل عبد اللّه الليثى وقال : أيسرك أن نساءك وبناتك وأخواتك ، وبنات عمك يفعلن ذلك؟ فأعرض الباقر حين ذكر نساءه وبنات عمه .

ــ وممن قدح فى بعض الصحابة الشيعة الإمامية الذين أكثروا من لعن أبى بكر وعمر وعائشة ،واتخذوا لعنهم قربة إلى اللّه ــ عز وجل ــ ومن الأمويين من جوز لعن الإمام على ــ كرم اللّه وجه ــ بل وأمروا بذلك على المنابر نكاية فى خصومهم ــ الشيعة .

ومن العجب العجاب : أن نرى رجلا من المعاصرين وينسب إلى المحدّثين يردّ أذان عثمان رضى اللّه عنه بحُجّة أن السنة ما جاء بها النبىّ ﷺ ، لا ما أحدثه عثمان .

سادسا : « . . . . وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » رغم كمال المنهاج الربانى ، وتماشيه مع القدرات الشخصية ، ومراعاته لكل ما يحيط بالإنسان ، وشدة وضوحه ، وعقلانيته ، ومع كل هذا فإن المصطفى عليه الصلاة والسلام يحذّرنا من أن تجرفنا تيارات البدع والضلال ، أو أن تزل أقدامنا فى متاهات الافتراء والاختلاق؛ لأن هذه الأخيرة تملك من أساليب المكر والدهاء وأضاليل الزيف والاختلاق ما تضمن به بقاءها واشتدادها فى ساحات الجهل والإيمان السطحى .

فهذه طائفة القاديانية الضّالة المضلة التى تحلّقت حول الشيطان الأفاك : ــ المرزا غلام أحمد القاديانى ــ المدّعى للنبّوة سنة ١٣١٤ هـ وظل يدعو لسخافته حتى وجد له أنصارا وتبّعا.

وذى طائفة هدّامة ثانية ألا وهى : البهائية المنتسبة لعلى محمد الشيرازى الذى أعلن سنة ١٢٦٠ م أنه(الباب) أى : الواسطة بين الشيعة الإمامية وإمامهم الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى المسمى بالمنتظر .

وأما عن المبتدعات فى الدين التى ألفها الناس واعتادوا عليها دون السنن التى أميتت فحدّث ولا حرج .

ولقد شملت هذه البدع وعمت وطمّت ، فهى فى الصلاة ، وفى الصيام ، وفى الحجّ، وفى الجنائز، وفى الأيمان والنذور ، وفى النكاح ، وفى الرضاع ، وفى الطلاق، وفى البيوع . . . ولا حول ولا قوّة إلا باللّه .

ولكن وللّه الحمد ، فلقد قيّض اللّه رجالا أرشدوا الأمّة وأزاحوا الظلمة وبينوا كل ما فى حياة الأمة من ابتداع وحملوها على الاتباع .

الحديث التاسع والعشرون

عن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه قال : قلت : يا رسول اللّه ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنّة ، ويباعدنى عن النار ؟ قال : « **لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسّره اللّه تعالى عليه : تعبد اللّه لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت** » ثم قال له : « **ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل** » ، ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ حتّى بلغ : ﴿ **يعملون** ﴾ . ثم قال : «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه ؟** » قلت : بلى يا رسول اللّه ! قال : «**رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد** » ، ثم قال : « **ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟** » قلت : بلى يا رسول اللّه ! فأخذ بلسانه ثم قال : « **كفّ عليك هذا** ». قلت : يا نبىّ اللّه ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلّم به ؟ فقال : « **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبّ الناس فى النار على وجوههم** » ، أو قال : « **على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم** » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه الإمام أحمد ، والترمذىّ ، والنسائى ، وابن ماجه من رواية معمر ، عن عاصم بن أبى النجود، عن أبى وائل، عن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

ترجمة الراوى :

لقد سبق التعريف بالصحابىّ الجليل معاذ بن جبل فى الحديث الثامن عشر من هذه

أخبرنى بعمل . العمل هنا يشمل عمل القلب واللسان والجوارح .

يدخلنى الجنة : أى يكون سببا فى دخولى الجنّة .

لقد سألت عن عظيم : أى سألت عن عمل عظيم.

أبواب الخير : يطلق الخير على المال الكثير ، والمراد : الأجر العظيم ، وهو الجنة .

الصوم : أحد أبواب الخير .

جنة : بضم الجيم : أى ستر و وقاية من كل شرّ؛ شر المعاصى ، وشر الشهوات ، وشرّ عذاب النار .

الصدقة تطفئ : أى تذهب بشرها سريعا . والمراد بالخطيئة : الصغيرة . =

السلسلة، ولا بأس بذكر بعض مناقبه رضى اللّه عنه، فهو أحد أكابر صحابة رسول اللّه ﷺ وصلحائهم ، وبعثه رسول اللّه عليه السلام إلى اليمن بعد غزوة تبوك وشيعه راجلا .

ومما يدل على شفافية قلبه وعمق إيمانه، ما رواه أنس بن مالك رضى اللّه عنه أنّ معاذاً دخل على رسول اللّه ﷺ فقال : « كيف أصبحت ؟» قال : أصبحت باللّه مؤمنا، قال : «إن لكل قول مصداقا ، ولكل حق حقيقة فما مصداق تقول ؟ » قال : يا رسول اللّه ،ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لا أمسى ،وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أنّى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى ، وكأنى أنظر إلى كل أمّة جاثية ،كل أمّة تدعى إلى كتابها ومعها نبيّها و أوثانها التى كانت تعبد من دون اللّه ، وكأنّى أنظر إلى عقوبة أهل النار، وثواب أهل الجنة ، قال : «عرفت فالزم»، وكان ــ رحمه اللّه ورضى عنه ــ عالما بالحلال والحرام .عن أبى مسلم الخولانى قال : أتيت دمشق ، فإذا حلق فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ وإذا فيهم شابّ أكحل العينين برّاق الثنايا ،كلما اختلفوا فى شىء ردّوه إليه . قال : فقلت لجليس لى : مَنْ هذا ؟ قال : هذا معاذ بن جبل .

روى له عن رسول اللّه ﷺ مائة حديث وسبعة وخمسون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على حديثين ، وانفرد البخارى بثلاثة ، ومسلم بحديث .

توفى ــ رحمه اللّه ــ سنة ١٨هـ وهو ابن ثمان وثلاثين ، وقيل : ثلاث وثلاثين بطاعون عمواس ، ودفن بمشارق (غوربيسان) .

ومن أراد المزيد فليطلبه فى أمهات التراجم ، ففيها ما يروى الغليل .

= **رأس الأمر** : العمل المسؤول عنه ، ورأس الأمر: الإسلام ؛لأنه لاحياة للأعمال الشرعية بغيره .
وعموده : أى ما يعتمد عليه ويرتفع به .
ذروة سنامه :ذروة الشىء : أعلاه ، والسنام فى الأصل : ما ارتفع من ظهر البعير .
بملاك الأمر :ملاك الشىء :ما به قوامه وإحكامه .
فأخذ : النبى .
بلسانه : بلسان نفسه .
كف عليك هذا : أى عنك شر هذا ، فتقول به خيرا أو تسكت .
وإنا لمؤاخذون : الكلام على الاستفهام ، والمقصود منه التثبت .
ثكلتك أمك : فقدتك ، أصله دعاء على المخاطب به ، ثم غلب استعماله للتنبيه على الشىء من غير قصد الدعاء .
وهل يكب الناس : الاستفهام إنكارى بمعنى النّفى ، أى : لايكب الناس ويلقهم فى النار دون مبالاة إلا .
حصائد : جمع حصيدة بمعنى محصودة ، فكأن اللسان آلة حصاد .

سبب ورود الحديث :

فى الطريق إلى تبوك كان الطريق شاقا وطويلا ، والسير مضنيا ، والحر يلفح الوجوه، والجيش الإسلامى يتلقّى كل هذه الصّعاب ويذلّلها ، ومع ذلك فلم يثن هذا الموقف عزيمة الصحابى الجليل الحريص على تفهّم حقيقة الإسلام ــ معاذ بن جبل ــ ولم ينسه أبدا الأمل الذى طالما راوده ، والذى دفعه إلى الخروج ، وهو الدخول إلى جنّات الفردوس ، وها هو يتحيّن الفرص ليهتبلها ، فما إن كان على مقربة من رسول اللّه ﷺ حتى بادره بهذا السؤال البليغ .

ولعل صدر الحديث يشهد بهذا السبب الذى ذكرت ، حيث قال : بينما نحن نخرج مع رسول اللّه ﷺ فى غزوة تبوك وقد أصابنا الحر وتفرق القوم ، فإذا رسول الله ﷺ أقربهم منّى ، فدنوت منه ، وقلت : يا رسول اللّه أخبرنى بعمل .

وصيغة سؤاله تدل على شيئين :

أ ــ تلَهُّفه لمعرفة أصول الدين التى بها يكون من أصحاب الجنّة المقرّبين ، ورواية الإمام أحمد لهذا الحديث ــ عن معاذ ــ تترجم ذلك : يا رسول اللّه ، إنّى أريد أن أسألك عن كلمة قد أمرضتنى ، وأسقمتنى ، وأحرقتنى .

ب ــ تنمّ عن فصاحته ، ودقّة تعبيره ، وبراعة إيجازه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

علم السلوك :

إنّ ما يحكم أعمال الخير كلها فيجعلها فى غاية الكمال هو ضبط اللّسان وكفه ، وهذا جهاد فى حدّ ذاته ؛ لأن الإنسان بلسانه يرفع إلى علّيين أو يهوى إلى أسفل سافلين. ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الرجُل ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن فيها يزلّ بها فى النار أبعد مّما بين المشرق والمغرب » .

وللّه درّ العارفين باللّه من أئمتنا الأعلام من السلف الصالح الذين دأبوا على مجاهدة النفس وتنزيه اللّسان من سقط القول واللغو فيما لا طائل من ورائه .

روى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر دخل على أبى بكر ــ رضى اللّه عنهما ــ وهو يجبذ لسانه ، فقال عمر : مه غفر اللّه لك ، فقال أبو بكر : هذا الذى أوردنى الموارد .

وقال ابن بريدة : رأيت ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ أخذ بلسانه وهو يقول : ويحك قل خيرا تغنم ، أو اسكت عن سوء تسلم ، وإلا فاعلم أنك ستندم . قال:

فقيل له : يابن عباس لم تقول هذا ؟ قال : إنه بلغنى أن الإنسان أراه، قال : ليس على شيء من جسده أشد حنقا أو غيظا يوم القيامة منه على لسانه ، إلا من قال به خيرا، أو أملى به خيرا .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسانى . وقال الحسن : اللسان أمير البدن ، فإذا جنى على الأعضاء شيئا جنت وإذا عفَّ عفت . وقال يونس بن عبيد : ما رأيت أحدا لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صالحا فى سائر عمله .

وقال يحيى بن أبى كثير : ما صلح منطق رجل إلا عرفت ذلك فى سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك فى سائر عمله .

وقال ابن المبارك عن فضالة عن يونس بن عبيد ــ رحمهم الله ــ :

لا تجد شيئا من البر واحدا يتبعه البرّ كله غير اللسان ، فإنك تجد الرجل يصوم النهار ويفطر عن الحرام ، ويقوم الليل ويشهد الزور بالنهار ، وذكر أشياء نحو هذا ، ولكن لاتجده لا يتكلم إلا بحق فيخالف ذلك عمله أبدا .

العقائدية :

مما لا يمارى فيه إلا معاند أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ رتب دخول الجنة على أعمال البرّ المبينة فى الشريعة الإسلامية كما أن لأهل الجنة والنار مواصفات وصفات محددة .

فصفات أهل الجنة لا تقرّب أصحابها من النار ، بل تباعدهم عنها وتدنيهم إلى الجنة وكذلك العكس .

ولقد ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة ما يدل بوضوح أن دخول الجنة ليس لمحض الصدف والاعتباط . وفيه : أنّ أعرابيا قال : يا رسول الله ، دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال :« تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان » قال : والذى بعثك بالحق لا أزيد على هذا شيئا أبداً ، ولا أنقص منه ، فلما ولى ، قال النبى ﷺ : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » .

وهذا أبو أمامة رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يخطب فى حجة الوداع يقول : « أيها الناس ، اتقوا الله ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم ».

كل ما ذكر مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[الزخرف : ٧٢] ، و ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ﴾ [سبأ : ١٧] .

ولكن القارئ الكريم يرى بين ما سبق وبين قوله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» تعارضا كبيرا إلا أنه فى حقيقة الأمر ليس بينهما أى تعارض لسببين :

أولا : لأنه لولا فضل الله ورحمته ما اهتدى العامل للعمل الصالح ، ولما اطمأن إليه وركن، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف :٤٣] ، وقال تعالى على لسان الكليم موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طه : ٢٥ ، ٢٦] ، فالتوفيق كله بيد الله ، وعبارة النبى فى الحديث الذى هو موضوع البحث صريحة فى دلالتها على ذلك : « وإنه ليسير على من يسره الله عليه » .

قال الحق سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [الليل : ٥ ـ ٧] . كما ورد أيضا ما يعزز الأحاديث السابقة فى قوله ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة » ثم تلا ﷺ هذه الآية يعنى آية « الليل » .

وكان من دعاء ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ : اللهم يسرنى لليسرى، وجنبنى العسرى.

ثانيا : لأن العمل نفسه لا يستحق به أحد الجنة لذاتيته لولا أنه تعالى جعله بفضله سببا .

الفقهية :

تعرض الحديث الشريف إلى أحكام فقهية عديدة ، حيث صدر بالقواعد الأساسية للإسلام : صلاة ، زكاة ، صوم ، حج ، ثم أردفها بسننها المحببة ونوافلها المستحبة ، وليس فى الحديث تكرار كما يبدو لأول وهلة ، بل فيه تبيان لمنزلة كل من الواجب المحتم والنفل المرغب فيه ، والمتمعن فى هذه الإجابة النبوية ــ الحديث الشريف ــ يرى اختلافا فى الترتيب بين العبادات الإسلامية وهى فى مقام الوجوب ، وبينها وبين بعضها، وهى فى مرتبة الاستحباب حيث تراها فى الحكم الأول هكذا :

التوحيد أولاــ طبعا ــ ثم إقامة الصلاة ، ثم إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، وحج البيت.

وتراها مرتبة فى التصنيف الثانى ترتيبا يغاير الأول ،حيث قدّم صَوْم النفل على

الصدقة وختم بقيام الليل ــ أى الصلوات غير المكتوبات المحدودات ــ ولا ريب أن هذا التقديم والتأخير ليس عشوائيا بمحض الصدفة ، بل إن الشارع الحكيم راعى فى الفرائض الخمس إعلان الشعائر الإسلامية فى المجتمع الإسلامى ؛ لذا فلا تضرّ المجاهرة بها وإفشاؤها عقائد الناس ، أما فى النوافل الأخرى فالهدف منها : تربية روح المراقبة فى النفس وتزكيتها وتطهيرها ، ولا يتم ذلك إلا إذا تمت فى السرّ ؛ وأول هذه النوافل : الصوم الذى هو بين العبد وربه كما ذكر الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » (١) . وثانيها : الصدقة التى يبطلها المنّ ، قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾[البقرة : ٢٦٣ ، ٢٦٤] .

وأما صلاة الليل ، ففيها قال ابن مسعود :فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السرّ على صدقة العلانية .

هذه إشارة فحسب للنظر فى سرّ الترتيب والتقديم الوارد فى الحديث النبوى الشريف ، ولا بأس بعد هذه اللفتة أن نقف عند تفصيلات الفقهاء لأحكام تلك النوافل المذكورة آنفا .

أولا : الصيام :

ما يستحب منه :

١ــيوم عرفة لغير الحاج؛ لما جاء فى مسلم عن رسول اللّه ﷺأنه قال: «صوم يوم عرفة يكفرّ ذنوب سنتين ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية».

٢ ــيوم تاسوعاء وعاشوراء ؛ فلقد صام ﷺيوم عاشوراء وأمر بصيامه وقال: «إذا كان العام المقبل إن شاء اللّه صمنا اليوم التاسع ».

٣ــستة أيام من شوال ؛ لقوله ﷺ: « من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر » (٢).

ويندب فى صيامها عدم إفشائها، وفصلها عن العيد، وتفريقها عند إمامنا مالك ــ رحمه اللّه ــ عملا بقاعدة سدّ الذرائع حتّى لا يعتقد وجوبها وإلحاقها برمضان .

٤ ــالنصف الأول من شعبان ؛ لقول عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ : ما رأيت

(١)رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم .

(٢)رواه مسلم .

الرسول ﷺ استكمل شهراً قط إلا رمضان ، وما رأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شهر شعبان(١) .

٥ ـ العشر الأوائل من ذى الحجة ؛ لقوله ﷺ : «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله ـ عز وجل ـ من هذه الأيام» ـ يعنى العشر الأول من ذى الحجة ـ قالوا : يا رسول الله ، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : «ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » (٢) .

٦ ـ شهر المحرم ؛ لقوله ﷺ عندما سئل : أى الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال : «شهر الله الذى تدعونه المحرم » (٣) .

٧ ـ الأيام البيض من كل شهر ، وهى الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر.

٨ ـ يوم الإثنين ويوم الخميس .

٩ ـ صيام يوم وإفطار يوم ؛ لأنه أحب الصيام إلى الله وهو صوم داود.

ثانيا : الصدقة :

إن التشريع الاقتصادى الإسلامى قد كفل عيش فقراء المجتمع وضمن حقوقهم بفريضة الزكاة التى عدّها حقا واجبا فى أموال الأغنياء ،حفاظا على كرامة مستحقى الزكاة وصونا لشعورهم .

فإذا ما تم ذلك ، فإن افتراض وجود الفقير المعدم فى المجتمع الإسلامى يعد ضربا من المستحيل ، وأندر من الكبريت الأحمر ، إلا أن تقلبات الدهر لا تفتأ أن تفقر الغنى، وتذل العزيز لحكم إلهية ، فما كان من الإسلام إلا أن زرع فى قلوب أهله الرحمة والحنان ، وحثهم على التصدق ، وحبّب إليهم السخاء بالأموال التى ليست ـ فى الحقيقة ـ لأصحابها المتصرفين فيها ، بل هى تحت الملكية العامة الملكية الرّبانية ، قال تعالى مخاطبا الأغنياء والقادرين على الإنفاق : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد : ٧] ، ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[النور : ٣٣] .

آداب التصدق :

على المتصدق أن يتحلى بهذه الخصال ، ويراعى هذه الآداب ليتقبل الله صدقته :

أ ـ عليه أن يتحرى المال الحلال ؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا .

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه البخارى . (٣) رواه مسلم .

ب ــ وليحرص على كتمانها ؛ لأن الرياء مبطل للأعمال .

جـ ــ ومن تمام الصدقة إعطاؤها لمستحقيها من الفقراء والمعوزين .

فعالية الصدقة وأثرها :

يعود فضل الصدقة وأثرها على المجتمع الإسلامى بادئ ذى بدء ككل من وجوه، أذكر منها :

١ ــ تحقق الكفالة الاجتماعية بأبهى صورها فى المجتمع الإسلامى بفضل إعانة الأغنياء للفقراء ، والقضاء المبرم على ظواهر البؤس والجوع ، وليس هذا من قبيل الأحلام والخيال، بل مما تمليه حقائق تاريخية إبان عهود الإسلام الزاهرة .

٢ ــ تفتيت الأموال ومحاربة تكديسها وتجميدها .

أمّا ما يعود على الشخص نفسه من آثار الصدقة ، فكثير منها :

١ ــ الصدقة تمحو السيئة؛ لأنها من ضرب الحسنات، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾[هود : ١١٤] ،وقال أيضا : ﴿ **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾[البقرة : ٢٧١] .

٢ ــ ومن ثم فهى تطفئ غضب الرب .

٣ ــ كما تدفع ميتة السوء . عن أنس رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إن صدقة السر لتطفئ غضب الرّب وتدفع ميتة السوء » (١). وروى عن على بن الحسين ــ رضى اللّه عنهما ــ أنه كان يحمل الخبز على ظهره بالليل يتتبع به المساكين فى ظلمة الليل ويقول : إن الصدقة فى ظلام الليل تطفئ غضب الرب ــ عز وجل .

ثالثا : قيام الليل :

لقد ورد أن أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل».

والنبى الكريم ﷺ فى هذا الحديث قد بين أفضل أوقات التهجّد بالليل وهو جوف الليل؛ فعن أبى سليم قال: قلت لأبى ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال : سألت النبى ﷺ كما سألتنى فقال: «جوف الليل الغابر أو نصف الليل، وقليل فاعله» (٢).

---

(١) أخرجه الترمذى ، وابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

وخرج ابن أبى الدنيا ما لفظه: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أى الصلاة أفضل؟ قال: «جوف الليل الأوسط»، قال: أى الدعاء أسمع؟ قال: «دبر المكتوبات».

وقد قيل : إن جوف الليل إذا أطلق ، فالمراد به وسطه ، وإن قيل : جوف الليل الآخر ، فالمراد به : وسط النصف الثانى ، وهو السدس الخامس من أسداس الليل .

الاجتماعية :

١ ــ القول الحسن والكلمة الطيبة هما سداد العلاقات الاجتماعية وضمان سيرها والمحافظة عليها ، والإسلام دأب فى تشريعاته على إنماء تلك اللحمة التى تربط أفراد المجتمع ، وحرم كل ما يهدم تلك العلاقات ويفصم تلك العرى من قول للزور ، وقذف، وكذب ، وغيبة ، ونميمة ، الحديث : ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ » قلت: بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : « كفّ عليك هذا » .

٢ ــ إن المؤمن فى مجتمعه عضو فعال لا يعتريه الهمود والجمود ، وإيجابى لا تساوره السلبية إلا فى بعض فترات الضعف البشرى إلا أنه يسعى إلى تدارك الخطأ ، ويعمل على محو الخطيئة ، وتكفير الذنب وفقا لقول النبى ﷺ : « . . والصدقة تطفئ الخطيئة ».

فتكفير الذنب ليس مع الله فحسب ، بل هو مع المخلوقين أوكد ؛ لأن حلم الخالق وصفحه أقرب .

والإسلام فى تشريعه للكفارات المتعددة يغرس فى المؤمنين خلق تَدَارك الزلل ومحاسبة النفس ، كما يضمن بتلك الكفارات أمن الفقراء الغذائى .

البلاغية :

وردت فى الحديث ألوان بلاغية متعددة نذكر منها قوله ﷺ :

« هل يكب الناس فى النار » . الذى ورد بصيغة الاستفهام الإنكارى بمعنى النفى: « إلا حصائد ألسنتهم » شبه ما تكلم به اللسان بالزرع المحصود بآلة الحصاد ــ المنجل ــ فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والردىء ، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل نوع من الكلام الحسن والقبيح ، ثم حذف المشبّه وأقام المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة التصريحية ، وجعل الإضافة قرينة لها والاستثناء مفرغ ؛ لأن فى الاستفهام معنى النفى ، والتقدير : لا يكب الناس شىء من الأشياء إلا حصائد ألسنتهم من الكلام .

كما نلمس بلاغة النبى ﷺ فى تنويع الكلمات وإيراد المترادفات حيث قال: «ألا أدلك ؟ » ثم « ألا أخبرك ؟ » .

فقه الدعـــوة

١ ــ يفتقر حديث الواعظ والمرشد إلى دعامات تسنده ، وحجج تعضده، وبراهين تكرّس مصداقيته ، ولا يكتفى الداعى أبداً بالأدلة العلمية والأمثلة الحسية ، بل لا يزال حاله يعبر عن رأيه وفكره ما لم يعززه بآية قرآنية أو نصوص سنية ، وها هو الذى لا ينطق عن الهوى يستشهد بقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾[السجدة: ١٦].

وإن أعجب فلا عجب إلا من بعض المنتسبين للدعوة المتطفلين عليها أو المتهنين الذين يخوضون مجالات شتى ، ويطرقون ألوانا عدة من المواضيع دون أن تسمع من أفواههم آية كريمة أو سنة قويمة ، وهم مع ذلك يستشهدون بقول فلان الفيلسوف الأوربى، والمنظر الاقتصادى ،والطبيب الأخصائى ، وإن صادف مرة واستدل بآية ، فإنما على سبيل الحشو والزجّ ، فتراه فى واد وما تلاه فى واد آخر بين المعنيين تباعد أو تنافر .

فمثلا تحدث أحد الأدعياء مرة عن تحديد المواليد فاستشهد على ما قال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[التحريم : ٦] .

وتحدث آخر عن رؤية هلال رمضان فقال : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

٢ ــ قد يسىء الداعى إلى دعوته من حيث لا يقصد ، بل فى قرارة نفسه يريد نشرها وتبليغها للناس ، ولكن يقدمها بأسلوب ركيك وبعبارات مفككة وألفاظ مبتذلة، هنالك تفتتن العامة فى دينها ، وتمج آذانها سماع الدروس والمواعظ ، وحتى لا يصبح حال الصحابة كذلك ، اعتمد النبى ﷺ على أساليب التشويق ، والتنبيه ، وتحريك الهمم :« ألا أدلك . . ؟ » ،« ألا أخبرك . . . ؟ » ،«وهل يكبّ » ، « . . . ثكلتك أمك » . . . إلخ .

تطبيق

١ ــ إن عماد الدين الصلاة ، قد هدمه الكثير من المسلمين العصاة ، تكاسلا وتقاعسا، وإذا كانت الصلاة فى المنظور الإسلامى هى الفارق بين المسلم وغيره ، فقد تلاشى هذا الفارق ومحيت آثاره بأيدى بعض المتفرنجين حتى أصبحت الكثير من الأسر الإسلامية فى بلاد الإسلام تتعارف على ترك هذه القاعدة الجليلة ولا ترى بينها راكعا ولا ساجدا .

٢ ــ لا شىء أرفع فى جسم الجمل من السنام،ولا شىء يرفع لواء هذا الدين

ويعلى كلمته ، ويجلى مذهبه أكثر من الجهاد فى سبيل الله بشقيّه المالى ، والروحى ، وهل كانت صورة الدولة الإسلامية ــ المنظمة والقوية ــ تكتمل فى أذهان الغرب والشرق والقبائل العربية المتربصة بالدين ونبيه لولا الجهاد فى سبيل الله الذى يستحى بعض دعاتنا اليوم من ذكره ؟ ! ولولا معركة الفصل والفرقان ــ بدر الكبرى ــ ما قام للدولة الإسلامية كيان ! !

وهل كانت الجزائر ــ مثلا ــ تنعم بنعمة الحرية لولا أولئك الذين باعوا أنفسهم من الله ــ عز وجل ــ ورفعوا راية الجهاد الذى تخلى عنه المسلمون اليوم ، وألهاهم عنه حب الدنيا والتنافس فيها ، هنالك استذلهم عدوهم ، الغاصب لأراضيهم ، المنتهك لحرماتهم ، المدنس لمقدساتهم .

ومن العبث أن نجنح فى هذه المرحلة إلى غير الجهاد ،إلى المؤتمرات السلمية العالمية، والمهادنات ، والمهانات ؛ لأن ذروة سنام الإسلام الجهاد .

الحديث الثلاثون

عن أبى ثعلبة الخشنى جرثوم بن ناشر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

« **إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها** » حديث حسن رواه الدارقطنى وغيره .

تخريج الحديث :

(هذا الحديث من رواية مكحول عن أبى ثعلبة الخشنى وله علتان :

إحداهما : أن مكحولا لم يصح له السماع عن أبى ثعلبة ، كذلك قال أبو شهر الدمشقى وأبو نعيم الحافظ وغيرهما .

والثانية : أنه اختلف فى رفعه ووقفه على أبى ثعلبة ، ورواه بعضهم عن مكحول عن قوله لكن قال الدارقطنى : الأشبه بالصواب المرفوع .

قال : وهو أشهر ، وقد حسن الشيخ [١] ــ رحمه الله ــ هذا الحديث وكذلك حسنه قبله الحافظ أبو بكر السّمعانى فى أماليه ، وقد روى معنى هذا الحديث مرفوعا من وجوه أخر) [٢] .

فرض : أوْجَبَ .

فرائض : أمور مقدّرة محدودة بأوقات معينة .

فلا تضيعوها : لا تفرطوا فيها بالترك ، أو بالتأخير والتقصير .

حدودا : جمع حد ، وهو فى اللغة : الحاجز بين شيئين . وفى الاصطلاح : هو المقدار الذى جعله الله مبينا لما شرع من الأحكام ،فلا تتعدى ما بينه الله لنا وحده فى الطلاق والعدة والميراث ، والصوم ، والزكاة . . . إلخ . و يدخل فى عموم الحد أيضا الحدود المشروعة للزجر .

تنتهكوها : أى فلا ترْتكبوها مقتحمين لها غير مبالين بها .

سكت عن أشياء : فلم يفرضها ولم يحرمها .

رحمة لكم : أى لأجل رحمته بكم .

غير نسيان : لأحكامها : ﴿لا يضل ربى ولا ينسى﴾ [طه : ٥٢] .

فلا تبحثوا عنها : بالسؤال عن حكمها ، واكتفوا بما بينت لكم أحكامه فقد يكون السؤال نفسه مببا للتشديد والتضييق ، كما هو الشأن مع بنى إسرائيل .

(١) يحيى بن شرف الدين النووى .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب البغدادى ص ٢٦١ .

ترجمة الراوى :

هو أبو ثعلبة الخشنى ــ جرثوم بن ناشر ــ من قبيلة خشينة ، وهى بطن من قضاعة بن مالك بن حمير ، وهو مشهور بكنيته ، كان ممن بايع تحت الشجرة ؛ وضرب له ﷺ بسهمه يوم خيبر وأرسله إلى قومه فأسلموا ، وكان يقول : إنى أرجو ألا يخنقنى اللّه كما أراكم تخنقون عند الموت ؛ وحقق الله رجاءه ، فبينما هو فى صلاته قبض وهو ساجد سنة خمس وتسعين ، ومروياته أربعون حديثا .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

أ ــ من أصول العقيدة الصحيحة الإيمان بعالم الغيب جملة وتفصيلا ؛لقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [البقرة : ٣] هذا الغيب المتمثل فى جميع السمعيات كالملائكة مثلا ،والساعة وما تشمل عليه من بعث، وحشر، وصراط، وميزان، وجنة، ونار، وحوض.

ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك إلا بالوحى الذى يجب أن نقف عنده وليس للمسلم أن يخوض فى هذا العالم الرهيب ، ولن يصل لشىء مهما أجهد نفسه .

ولقد أهدر البعض أوقاتهم فى الحديث عن أشكال الملائكة ، ووصف كلاليب جهنم، ومأكولات ، وفرش الجنة ، . . . و . . . وقصورها ، ودورها .

ب ــ كما لا يجوز البحث فى الذات العلية ؛ لأن العقل البشرى أعجز من تصور ذلك، والبحث فى هذا المجال يبعث الحيرة والشك ثم يرتقى الشك إلى التكذيب . عن أنس رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال:«قال اللّه ــ عز وجل ــ : إن أمتك لا يزالون يقولون:ما كذا؟ ما كذا؟ حتى يقولوا: هذا اللّه خلق الخلق فمن خلق اللّه؟!»(١).

قال إسحاق بن راهويه : لا يجوز التفكير فى الخالق ويجوز للعباد أن يتفكروا فى المخلوقين بما سمعوا فيهم ، ولا يزيدون على ذلك؛ لأنهم إن فعلوا تاهوا ، قال : وقال اللّه عز وجل : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ولا يجوز أن يقال : كيف تسبيح القصاع والأخونة ، والخبز المخبوز، والثياب المنسوجة وكل هذا قد صح العلم فيهم أنهم يسبحون ، فذلك إلى اللّه أن يجعل تسبيحهم كيف شاء ، وكما شاء ، وليس للناس أن يخوضوا فى ذلك إلا بما علموا ولا

---

(١) صحيح مسلم .

يتكلموا فى هذا وشبهه ، إلا بما أخبر اللّه ولا يزيدون على ذلك ، فاتقوا اللّه ولا تخوضوا فى هذه الأشياء المتشابهة ، فإنه يلهيكم الخوض فيه عن سنن الخلق .

الفقهية :

اعتبر القرآن الكريم جملة ما أذن فى فعله ، سواء كان عن طريق الوجوب أو الندب أو الإباحة حدود اللّه ، ومن ثم نهى عن تجاوزها وارتكاب ما نهى عنه ؛ لأنه تعد لتلك الحدود ، قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** ﴾ [الطلاق : ١] .

إذًا من طلق أيام الحيض طلاقا ثلاثا ، مثلا فقد تعدى حدود اللّه . كما اعتبر القرآن من أمسك بعد أن طلق بغير معروف ، أو سرّح بغير إحسان ، أو أخذ ممّا أعطى المرأة شيئا على غير وجه الفدية التى أذن اللّه فيها متعديا لحدود اللّه : ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وبعد أن فصل الكتاب العزيز أحكام الوراثة، وبين من له حق الوراثة ومقدار حق كل ، عقب بقوله : ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ إلى قوله: ﴿**وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [النساء :١٣، ١٤].

وقد تطلق الحدود ويراد بها نفس المحارم كقوله ﷺ : « مثل القائم على حدود اللّه والمداهن فيها كمثل قوم اقتسموا سفينة » وأرادوا بالقائم على حدود اللّه : المنكر للمحرمات الناهى عنها .

وقد تسمى العقوبات المقدّرة فى الشريعة الإسلامية حدوداً كما يقال : حدّ الزنا ، وحد السرقة ، وحد شرب الخمر ، وهذا هو المعروف من أسماء الحدود فى اصطلاح الفقهاء ؛ ومنه قول النبى ﷺ لأسامة : « أتشفع فى حد من حدود اللّه ؟ ! » يعنى به قطع يد السارقة .

وقد حمل بعضهم قوله ﷺ : « وحد حدودًا فلا تعتدوها » على هذه العقوبات الزاجرة عن المحرمات ، وقال : المراد النهى عن تجاوز هذه الحدود وتعديها عن إقامتها على أهل الجرائم .

ولا بأس أن نذكر باقتضاب تلك الحدود التى بينتها الشريعة الإسلامية :

أولا: حد الخمر: فمن ثبت شربه للخمر باعترافه أو بشهادة عدلين فقد وجب عليه

الحد وهو ثمانون جلدة على ظهره ؛ لإقامة النبى ﷺ الحدّ على شاربها بالضرب فى فناء المسجد ، كما ورد فى الصحيحين .

ثانيا : حد القذف : والقذف هو الرّمى بالفاحشة ــ الزنا ــ وهو ثمانون جلدة بالسوط ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور : ٤] .

ثالثا : حد الزنا : ويختلفَ باختلافَ حال الزانى نفسه ، فإن كان غير محصن ــ يعنى غير متزوج ــ كان حده الجلد والتغريب فيجلد مائة جلدة ويغرب عاماً عن بلده ؛ لقوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : ٢] .

وأما إن كان محصنا ، فحده الرجم حتى الموت ؛ لما فعله النبى ﷺ فقد رجم الغامدية ، وماعزا ، ورجم اليهوديين(١) .

رابعا : حد اللواط : القتل ؛ لقوله ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به »(٢) .

إلا أنه اختلف فى كيفية القتل ، فمن الصحابة من أحرقهما ــ أى الفاعل والمفعول به ــ بالنار ، ومنهم من قتلهما رجما بالحجارة ، أما ابن عباس فقال فيهما : ينظر أعلى بناء فى القرية ويردى بهما منه منكسين ثم يتبعان بالحجارة .

خامسا : حد السرقة : القطع لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] .

سادسا : حدّ المحاربين : المراد بالمحاربين هنا هم قطاع الطرق لأخذ أموال المارة وأرواحهم بقوة السلاح وحدودهم مبينة فى هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٣٣] . إلى آخر الحدود المقررة كحد الساحر ، والمرتد ، والزنديق ، وتارك الصلاة .

فقه الدعـوة

من شيمة العلماء العارفين التوقف عند دلالات النصوص الواردة ، والتورع فى الفتيا ، وعدم الخوض فى الأحكام التوقيفية بالرأى ؛ فهذه أمثلة تبين حذر الأئمة وصالح السلف من الدخول تحت قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل:١١٦] فهذا الإمام أحمد رضى الله عنه يضرب

(١) أخرجاه فى الصحيحين .
(٢) رواه أبو داود ، والترمذى وغيرهما .

أروع مثل فى الورع حين يتوقف فى إطلاق لفظ الحرام لاختلاف النصوص أو اختلاف الصحابة فى شيء. ولكن هذا لا يعنى توقفه فى معنى التحريم ،سئل مرة عن النفير متى يجب؟فقال: أما إيجابه فلا أدرى، ولكن إذا خافوا على أنفسهم فعليهم أن يخرجوا.

وقال فى متعة النساء : لا أقول :هى حرام ولكن ننهى عنه، وقال فى الجمع بين الأختين بملك اليمين : لا أقول : هو حرام ولكن ننهى عنه .

قال الربيع بن خيثم : ليتق أحدكم أن يقول : أحل كذا ، وحرم كذا ، فيقول الله : كذبت لم أحل كذا ، ولم أحرم كذا.

وقال ابن وهب : سمعت مالك بن أنس يقول : أدركت علماءنا يقول أحدهم إذا سئل : أكره هذا ولا أحبه ، ولا يقول : حلال ولا حرام .

قال ابن المبارك : أخبرنا سلام بن أبى مطيع عن أبى دخيلة عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فقال : نهى رسول اللّه ﷺ عن الزبيب والتمر ، يعنى أن يخلطا ، فقال لى رجل من خلفى :ما قال ؟ فقلت : حرّم رسول ﷺ التمر والزبيب ، فقال عبد الله ابن عمر : كذبت، فقلت : ألم تقل : نهى رسول اللّه ﷺ عنه فهو حرام؟ فقال : أنت تشهد بذلك ؟! قال سلام : كأنه يقول : نهى النبى ﷺ فهو أدب ، فأين نحن منهم وهم العلماء الفقهاء ؟ ! وأين دعاتنا من هذا الأدب ؟ !

تطبيق

إننا نعانى من المتنطعين فى هذا العصر الذين يتعمقون فى البحث عن المسكوت عنه أكثر ممّا نعانيه من أعداء الإسلام الكائدين له؛ لأن كثرة البحث فى هذا المجال تنم عن شيئين:

أولا : ضيق الأفق والفكر المتحجر والذهن الخامد لدى ذلك المجتمع، وللّه درّ خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز حيث أرسل يوما إلى أحد ولاته أمرا ، فأرسل الوالى يستوضحه ببعض التفصيلات ، فتجهم الخليفة وكتب إليه من فوره : أما بعد : فأراك لو أرسلت إليك : أن اذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ، لأرسلت إلىّ تسألنى: ضأنا أم معزا ؟فإن أجبتك أرسلت إلىّ تسألنى : كبيرة أم صغيرة ؟ فإن أجبتك أرسلت تسأل: بيضاء أم سوداء ؟ ! إذا أرسلت إليك بأمر فتبين وجه الحق فيه ثم امضه.

ثانيا : أوهى وسيلة للمراوغة والتلكؤ والمماطلة شأن بنى إسرائيل مع موسى عليه السلام : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ**

وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ. . .﴾ [البقرة : ٦٧ ـ ٧٠] .

مما سبب التشديد عليهم وهلاكهم ؛ لقوله ﷺ : « فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » .

لقد كثر الحديث اليوم فى ماهية اللحوم المستوردة وخاض فى أحكامها كل من هبّ ودبّ ؛ لذا رأيت ذكر ما ورد فى صحيح البخارى عن عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ أن قوما قالوا للنبى ﷺ : إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أنذكر اسم اللّه عليه أم لا ؟ فقال : «سموا عليه أنتم وكلوا » قالت : وكانوا حديثى عهد بالكفر .

وروى عبد الرزاق بإسناده عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال لمن نزل من المسلمين بفارس : إذا اشتريتم لحما فاسألوا ، فإن كان ذبيحة يهودى أو نصرانى فكلوا. وهذا لأن الغالب على أهل فارس المجوس وذبائحهم محرمة .

وحديث سلمان الفارسى فيه السؤال عن الجبن ، والسمن ، والفراء ، فإن الجبن كان يصنع بأرض المجوس ونحوهم من الكفار ، وكذلك السّمن والفراء كذلك تجلب من عندهم وذبائحهم ميتة ، وهذا مما استدل به على إباحة لبن الميتة وأنفحتها وعلى إباحة طعام المجوس ، وفى ذلك كله خلاف مشهور .

ويحمل على أنه إذا اشتبه الأمرلم يجب السؤال والبحث عنه ،كما قال ابن عمر ـ رضى اللّه عنهما ـ لما سئل عن الجبن الذى تصنعه المجوس فقال : ما وجدته فى سوق المسلمين اشتريته ولم أسأل عنه .

وذكر عند عمر الجبن وقيل : إنه يوضع فيه أنافح الميتة ، فقال : سموا اللّه وكلوا.

قال الإمام أحمد : أصح حديث فيه هذا الحديث : يعنى جبن المجوس ، وقد روى من حديث ابن عباس ـ رضى اللّه عنهما ـ أن النبى ﷺ ، أتى بجفنة فى غزوة الطائف فقال : «أين تصنع هذه ؟ » قالوا : بفارس ، فقال ﷺ : «ضعوا فيها السكين وقطعوا ، واذكروا اسم اللّه وكلوا »خرجه الإمام أحمد (١) .

وليس لنا ما نذكره بعد إيراد ما سبق غير أننى ألفت انتباه القارئ إلى خطورة الفصل فى هذه القضية الشائكة دون المجوء إلى البحوث المفصلة فى هذا الشأن .

(١) ص ٢٦٩ من جامع العلوم والحكم .